جامعة البصرة
كلية الآداب

الفلسفة الحديثة

المرحلة الثانية

قسم الفلسفة

٢٠١٨-٢٠١٩

العصور الوسطى

كان من النتائج التي أتت بها الثورة التي أحدثها اشبنجلر أن العصور الوسطى لم يعد ينظر إليها على أنها منفصلة عن الحديثة والقديمة ؛ بل أصبح ما يسمونه بالعصور الوسطى والعصور الحديثة شيئاً واحداً ، داخلاً تحت الحضارة الغربية .

فالحضارة الغربية لم تنشأ في القرن الخامس عشر أو السادس عشر كما زعم المؤرخون حتى اليوم ؛ وإنما نشأت أولاً في القرن العاشر واستمرت في طريق التطور ، وصارت تخضع لقوانين الحضارة ؛ وستنتهي بانتهاء القرن العشرين . وتبعاً لهذه النظرة الجديدة ، يجب علينا ألا نفرق بين العصور الوسطى الفلسفية ، وبين العصور الحديثة في الفلسفة أيضاً .

والواقع أن هذه الحضارة بدأت في القرن العاشر ، ووصلت إلى درجة عليا في القرن الثالث عشر . ثم بدأ انحلالها في القرن الخامس عشر لكي تأتي نظرة رجال النهضة . ولكن هذه النظرة الجديدة لا يمكن أن تعد مخالفة كل الاختلاف ؛ بل تعد استمراراً للحضارة القديمة التي وجدت إبان العصور الوسطى.

ومع ذلك فإن من المعتاد في تاريخ الفلسفة ، حتى اليوم ، أن ينظر إلى العصور الوسطى الفلسفية باعتبارها واقعة بين القرن التاسع والرابع عشر أو الخامس عشر . ولكن ليس معنى هذا أن الفترة التي سبقت ذلك العهد لم يكن فيها اتصال بين الفلسفة القديمة ، والجديدة التي نشأت في القرن التاسع . فلئن كانت الفلسفة القديمة قد انتهت في أوائل القرن السادس ، فإن المحاولات التي قام بها المفكرون بين السادس والتاسع يمكن أن تعد محاولة انتقال بين الفلسفة القديمة والحديثة .

عصر النهضة وأهم سماته:

١-تحرر العقل من سلطة الكنيسة وظهور المدارس الفكريةالتي اكدت على تشجيع البحوث والمعارف الجديدة ونبذ التصنيفات القديمة للمعرفة.

٢-التطور الهائل للتجربة والتقنيات العلمية وظهور عددمن الاختراعات المهمة كاكتشاف رأس الرجاء الصالح واكتشافات العلماءالتي قلبت شروط الحياة الفكرية في اوربا.

٣-اعادة قر اءة للتراث اليوناني القديم بروحية جديدة.

٤-تطور المخترعات الصناعية والميكانيكية والفنية بفضل العديد من الحرفيين والفنانين بفضل تحررهم من سلطة الكنيسة.

٥-ادت هذه التغيرات الى توجيه النقد اللاذع لرجال الكنيسة الذين كانوا يسيطرون على الفكر والمعرفة والسياسة والفن وهوما ادى لرسم صورة جديدةللانسان والعالم.

الفصل الأول

تمهيد
١ ـ روح الفلسفة الحديثة

ربما تكون أفضل طريقة لمعرفة شيء عن الروح التي جعلت إنجازات الفلسفة الحديثة ممكنة هي أن نلاحظ كيف تختلف الخصائص التي سادت الفلسفة الحديثة عن خصائص العصور السابقة. ويمكن أن نشير إلى هذه الاختلافات تحت العناوين الرئيسية الثلاثة : ـ

أولاً: الفلاسفة المحدثون علميون في موقفهم العادي، في مقابل الميول الاستاطيقية التي تتكرر بكثرة عند الفلاسفة القدماء، والاهتمامات اللاهوتية المسيطرة عند المدرسيين في العصور الوسطى(*). فلقد آمن اليونان القدماء بالجمال. ولقد عبرت آلهتهم وإلاهاتهم، والفن، والآداب المتصلة بها، تعبيراً واضحاً عن ذلك الإيمان. وعندما تمايزت فلسفتهم عن الدين، استمروا في النظر إلى الكون على أنه منظم وجميل. ولقد ظلت قيم الجمال والحق والخير مرتبطة في أذهانهم ارتباطاً لا ينفصم. وكان الخير الأقصى هو الجميل في أسمى صوره. وكان الإنسان الفاضل هو «الجميل والخير». وحكم العقل كل شيء؛ إذ حددت العلل الغائية والأغراض مجرى الأحداث والطبيعة الداخلية للأشياء. وكان علمهم على يقين بأن النجوم لابد أن تتحرك في دوائر، أليست الدائرة هي الشكل الكامل؟ ولقد اعتقد اليونان أن غايات الأشياء وقيمها موجودة في بداياتها، كما اعتقدوا أنها توجه حركتها. ومن المرجح أن تحمل الأبحاث القديمة قيمة عظيمة كالقيمة التي

(*) الفلسفة المدرسية هي فلسفة العصور الوسطى المسيحية التي نشأت في مدارس Schola أو تطورت فيها، أو نهاها ودافع عنها خريجو المدارس. وقد كانت كلمة Scholasticism تطلق على المدرس الذي يقوم بالتدريس، وعلى خريج المدرسة في وقت واحد. ولقد انتشرت هذه المدارس في عهد شارلمان خصوصاً في فرنسا وألمانيا. وكانت في معظمها دينية: إما مدارس رهبان ملحقة بالأديرة، وإما مدارس أسقفية لتعليم رجال الدين الذين لا يريدون الرهبنة. وهي تشبه إلى حد ما «الكتاتيب» التي كانت ملحقة بالمساجد في بلادنا في ذلك الوقت. (المراجع)

يحملها الأدب بمعنى الأدب الرفيع. ومما يؤيد ذلك أن الفيلسوف القديم كان باحثاً جريئاً شجاعاً عن الحقيقة، وعلى استعداد أن يسير مع النتائج المنطقية للحجة أينما سارت، غير أن إيمانه التام بالنظام والجمال قد حسما بصورة كبيرة اتجاه تفكيره. فمن المحتمل عنده أن القيم هي التي تحدد الوقائع.

ولقد ظل هذا الإيمان، في تفوق ما ينبغي أن يكون، سائداً في الفكر الوسيط في صورة معدلة، وصلت فيها الفلسفة الإنسانية إلى قمتها بفضل لاهوت الكنيسة الموحى به والمقدس. وقد كانت معتقدات الدين أكثر يقيناً من أي استدلال بشري. ولقد كانت وظيفة الفلسفة أن تحاول تفسير حقيقة هذه المعتقدات، وأن تبرهن عليها بمقدار ما تقع داخل قدرة العقل البشري أن يفعل ذلك، لأن الفلسفة لم تكن سوى خادمة للاهوت، وكانت مجرد إشباع عقلي لفهم شيء يقبله المرء على نحو مستقل عن السلطة العليا للإيمان.

وفي مقابل كل من الفلسفة القديمة وفلسفة العصور الوسطى، نجد أن الفيلسوف الحديث علمي في نظرته. فالقيم لا تشهد بالضرورة على صدق الوقائع الممكنة. ولم يعد اللاهوت يضع حدوداً لتفكير الفيلسوف، ولا يُملي النتائج التي ينبغي عليه أن يصل إليها. ولما كانت الفلسفة قد توقفت عن أن تكون خادمة للاهوت، فقد أصبحت تفسر العلوم التي تتقدم بسرعة. ولم يعد الفيلسوف الحديث يخشى أن يتأمل بشجاعة أكثر مما يفعل العلماء، وسعى إلى أن ينظم نتائج العلوم الطبيعية المختلفة والاجتماعية في صورة للعالم ككل يُفسح فيها المجال لقيم الفن، والأخلاق، والدين، كما يبين انفاقها مع النتائج المستقرة للبحث العلمي. غير أنه لابد من كشف الوقائع على نحو ما هي عليه، وتعلم العيش بقدر الإمكان في ضوء هذه المعرفة. ولذلك فإن البحث الحديث عن الحقيقة هو السمة الأساسية التي يتميز بها الفيلسوف الحديث. فهو يحب الجمال ويقدّر الفضيلة الشخصية والعدالة الاجتماعية. لكنه لا يستطيع أن يسلّم ببساطة بكون يشجع على وجود هذه القيم. فواجبه الأول أن يعرف الأشياء كما هي.

ثانياً: روح الفلسفة الحديثة هي روح فردية، في الوقت الذي كانت فيه الفلسفة القديمة وفلسفة العصور الوسطى تميلان بطرق مختلفة، إلى أن تكونا شمولية

institutional. فأفلاطون وأرسطو، وهما اثنان من أعظم فلاسفة اليونان، اعتادا الكتابة من وجهة نظر مواطني الدولة الحرة. وبعد أن فقدت الدول اليونانية حريتها، وجد الرواقيون تعويضاً في فكرة أن العالم كله هو دولة ـ مدينة عظيمة (Polis) للآلهة والناس. واستمر شيشرون وسنكا، وهما يحاولان جعل الفلسفة اليونانية ملائمة للحياة الرومانية، في التفكير بشكل واسع من منظور المواطنة. وكان الإنجاز الأصيل الوحيد، تقريباً، الذي أنجزه الرومان في الفكر الفلسفي هو تطوير علم التشريع ـ أعني فلسفة القانون ـ أو التشريع القانوني. وكان الاتجاه المألوف في الفلسفة القديمة ـ باستثناء الأبيقورية، والأفلاطونية المحدثة ـ هو النظر إلى الناس من منظور المؤسسات السياسية، بوصفهم مواطنين أو رعايا. ولقد كانت دولة المدينة، وكذلك الإمبراطورية موضع تقدير الفلاسفة في العصر الوسيط، وإن كان من المحتمل أنهم نسبوا إليها مكاناً ثانوياً يخضع لمؤسسة الكنيسة المقدسة. لقد تحددت حياة الإنسان في العصور الوسطى في معظم جوانبها عن طريق وضعه الديني في الكنيسة والنظام الإقطاعي. ولقد كان الفلاسفة في العادة من الرهبان. وبينما كان بعضهم مستقلين بصورة مدهشة في التعبير عن أفكارهم، وقويلوا ـ بصفة عامة ـ بتسامح أكثر مما كانت عليه الحال في البلاد الكاثوليكية والبروتستانتية معاً في القرن الذي تلا مباشرة عصر الإصلاح الديني، فإن معظمهم كانوا يفكرون بوصفهم رجال كنيسة.

وعندما نقارن بين الفلسفة الحديثة والفلسفة القديمة وفلسفة العصور الوسطى معاً، فإننا يمكن أن نصفها بأنها فردية. فالفكر الحديث فردي بمعنى أنه يستطيع أن يصنع لنفسه لمجاريه، ويتحقق من صحة الفروض بنفسه، ويختبر منطق الحجج بتفكيره الخاص. إنه يضع نصب عينيه سلطات الفروض، ويستمد المعلومات الضائلة الموجودة في أمهات الكتب في موضوعه. غير أنه لا يقبل شيئاً على أنه حق ببساطة لأن سلطة ما قد أقرته، ولا يقبل موضوعاً مهما كان له من تقدير وتبجيل. إنه يشبه الشاعر الحديث، والنحات والرسام (المصور)؛ فكل منهم يعبر عن استبصاراته بحرية، لا يتبع التقاليد إلا من حيث إنه يجدها مفيدة وناقعة. فالأصالة جديرة بالثناء والمدح بصورة أكبر مما تعارف عليه الناس. لقد بدأ عصر الإصلاح البروتستانتي ـ على الأقل ـ بزعم مؤداه أنه يجب على كل

فرد أن يكون حراً في أن يقرأ الكتاب المقدس ويفسره لنفسه، وأن يصلي لله، ويتلقى غفرانه والعفو منه دون توسط الكهنة، والقديسين، والأسرار المقدسة[*]. غير أن الكنائس البروتستانتية سرعان ما طورت نظام معتقداتها، ونددت بالهرطقة. وعلى الرغم من أن اللاهوتيين البروتستانت المحدثين لم يكونوا من الكهنة، فإنهم بصفة عامة لم يكونوا مستقلين في تفكيرهم على نحو ما كان الفلاسفة المحدثون العلمانيون. لأنه في حين أن كثيراً من الفلاسفة العلمانيين المحدثين انفلوا من أتباع الكنيسة الكاثوليكية (التي تؤمن بالتناول)، فإن الغالبية العظمى منهم لم يشعروا بالتزامهم نحو السلطة الكنسية.

لقد طور الفيلسوف الحديث ـ الذي لم يكن مقيداً إلا على نحو ضئيل بقيود الدين، ويعمل في مجالات لم تستثمر فيها المعرفة الدقيقة بعد ـ فروضاً بحرية، واضعاً في اعتباره، تماماً التطورات العلمية الجديدة وتأثيرها على مشكلاته. وربما كان الأكثر فردية بين المفكرين جميعاً. فلم يتفق فيلسوفان محدثان عظيمان تماماً على كل الموضوعات المهمة. بل فحص كل فيلسوف الشواهد بنفسه وتوصل إلى نتائجه بصورة مستقلة. ولما كان الكون شاسعاً للغاية، والحقيقة ذات أبعاد كثيرة، فربما كان لكل فيلسوف أن يقدم تأويلاً جديداً للطبيعة أو للإنسان وأن ينظر إلى جوانب من الواقع لم يرها أحد من قبل. ولقد كان ذلك على أقل تقدير هو التناع أولئك الذين يقرون في الفلسفة الحديثة. وأحياناً يكون الاختلاف بين الفلاسفة موضع مبالغة. لأن معظم الفلاسفة في أي جيل قد يتفقون في أغلب المسائل. ونادراً ما تصل النزعة الفردية إلى التناثر.

ثالثاً: لقد كانت الفلسفة الحديثة فلسفةدولية international، في حين أن الفلسفة القديمة كانت قومية national، وكانت فلسفة العصور الوسطى تخص المواطن العالمي Cosmopolition. لقد كانت الفلسفة الأوربية القديمة في الغالب فلسفة يونانية تماماً[**].

(*) تحفظ الكنيسة الكاثوليكية بأسرار سبعة لابد أن تؤدي عن طريق قسيس منها: سر الاعتراف، وسر التناول، والمعمار، والزواج، والقربان... الخ. فجاء «لوثر» ورفضها ليجعل الصلة مباشرة بين الله والإنسان الفرد (المراجع).

(**) يريد المؤلف أن يقول إن الفلسفة الحديثة فلسفة دولية تتخطى الحدود القومية في الوقت الذي كانت فيه الفلسفات القديمة من يونانية ورومانية فلسفات قومية محلية تهتم بالمواطن اليوناني أو الروماني، بينما كانت فلسفة العصور الوسطى تريد المواطن العالمي الذي يعتبر العالم كله وطناً له متحرراً من الأعداء القومية أو المحلية (المراجع).

إذ أنها عبرّت عن الوعي اليوناني، وعن وجهة النظر اليونانية عن الحياة. ولم يتم التفكير أصلاً إلا بألفاظ اللغة اليونانية وتركيبها النحوي. فلا أحد سوى اليونان يستطيع أن يتجها، كما أن كل العصور اللاحقة قد استفادت منها. ولقد كانت فلسفة العصور الوسطى تخص المواطن العالمي بالمعنى الجيد والمعنى السيء. فلقد فكر القساوسة، وعلّموا، وكتبوا فلسفتهم باللاتينية (لسان كل المدرسيين في ذلك الوقت) وكان هذا شيئًا عظيمًا، لأنهم سافروا وانتقلوا بحرية من بلد إلى آخر واستفادوا من طريق تبادل شامل للأفكار بلغة دقيقة في استخدامها للمصطلحات. وكان هذا شيئًا سيئًا من جهة أخرى، لأن اللغة اللاتينية لم تكن لغة محلية يتحدث بها أي مواطن. لكن يمكن فقط أن تُناقش بها الموضوعات المجردة. ولم تجد جوانب كثيرة من حياة الأشخاص العاديين القومية والشخصية تعبيرًا عنها في كتابات الرهبان. فالاهتمامات الدنيوية بوجه عام لم تحظ ولو بقدر طفيف من المعرفة، وكان المناخ معارضًا للملاحظة المباشرة للعمليات الطبيعية؛ إذ عرفت الفلسفة أكثر مما ينبغي في تعريف الألفاظ المجردة والاستدلال منها.

أما الفلسفة الحديثة فقد كانت نتاج أناس كثيرين من أمم كثيرة، معظمهم من عامة الناس، فكروا بلغتهم هم الخاصة وفسروا الحياة كما خبروها بين أقرانهم من المواطنين. ولقد نُشرت أعمالهم الأكثر فنية أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر باللغة اللاتينية، ولذلك كانت متاحة للدارسين في كل مكان، ثم ظهرت الكتب الأكثر أهمية بعد ذلك باللغة الإنجليزية، والفرنسية، أو الألمانية أو تُرجمت بعد ذلك إلى لغة أو أكثر من هذه اللغات الثلاث الحديثة الكلية للدارسين. وهكذا ضربت الفلسفة الحديثة بجذورها في الحياة القومية في مكان ما، وبهذا المعنى أصبحت قومية. ومن ناحية ثانية، درس فلاسفة كل أمة حديثة إسهامات أصدقائهم في أماكن أخرى بشغف واهتمام (إنني أدين لـ (د. فالكنبرج) بهذه الفقرة في كتابه «تاريخ الفلسفة الحديثة»).

٢ ـ فترات الفلسفة الحديثة

من الخطأ افتراض أن هناك أي تاريخ دقيق لنهاية فلسفة العصور الوسطى، وبداية الفلسفة الحديثة، لأن فلسفة العصور الوسطى لم تمت على الإطلاق؛ فهي لا تزال تعيش حتى يومنا الراهن. ولقد بدأ إحياء المذهب الإسكولائي على يد ليون الثالث عشر، والكردينال مرسييه وآخرين، واستمر الباحثون الكاثوليك المعتدلون في الترويج له بقوة تحت اسم الإسكولائية الجديدة(*).

فلقد اعتقد هؤلاء أن تعاليم القديس توما الأكويني في القرن الثالث عشر يمكن تعديلها لتلائم علم القرن العشرين وحياته الاجتماعية دون التخلي عن أي شيء جوهري في الإسكولائية، ولذلك لم يكونوا مستعدين لأن يقبلوا سوى خصائص الفلسفة الحديثة التي تلائمها. ولقد تشكل معظم لاهوت الكنائس البروتستانتية القديمة إبان القرن السادس عشر وقبل ظهور أعمال معظم الفلاسفة المحدثين العلمانيين، ومن ثم فقد انطوت على قدر كبير من وجهة النظر الإسكولائية، وكانت النتيجة هي أن اللاهوتيين البروتستانت المحافظين يصورة كبيرة في العصر الحالي كانوا على اتفاق كبير مع القديس توما الأكويني، أو على الأقل مع القديس أوغسطين، بقدر اتفاقهم مع مفكري القرن السابع عشر من أمثال فرنسيس بيكون وديكارت أو مع فلاسفة علمانيين لاحقين.

لقد استبقت الفلسفة الحديثة إلى الظهور عندما وحينما بدأ كل شخص في التفكير بصورة مستقلة عن المعتقدات التي تلقنها الناس، ونظر في هذه الأمور بنفسه. ويصادق

(*) الاسكولائية الجديدة Neo - Scholasticism حركة كاثوليكية جديدة ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر، واستهدفت تعديل مناهج الفلسفة الاسكولائية القديمة بحيث تلائم حاجات العصر الفكرية ومكتشفات العلم الحديث. ولقد انبثقت من الدعوة التي وجهها البابا «ليون الثالث عشر» عام ١٨٧٩ إلى العالم المسيحي يحثه فيها على العودة إلى ينابيع الحكم الصافية المتحفظة من مؤلفات القديس توما الأكويني. ولقد زعم ليون أن هناك نظرية مشتركة بين توما الأكويني، وألبير الكبير وبونافنتورا، ودانز سكوت، وأن توما الأكويني هو المتحدث باسم هذه النظرية. تسمى أحياناً باسم «التوماوية الجديدة»، ومن أعلامها «جوزيف كلوتجن»، و«ديزيريه مرسييه» و«جوزيف مارشال» و«جاك مارتيان» واتين جلسون» وآخرون. (المراجع).

ذلك على روجر بيكون (١٢١٤ ـ ١٢٩٤) رغم أنه لم يكن له سوى تأثير ضئيل على المفكرين اللاحقين، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نؤرخ لبداية الفلسفة الحديثة منه. فهناك كُتّاب كثيرون في إيطاليا في القرن الخامس عشر استبقوا الفلسفة الحديثة في مسائل متعددة، ويمكن أن ننظر إليهم على أنهم المبشرون بها. فإحياء دراسة الآداب اليونانية والرومانية في أكاديمية فلورنسا عام ١٤٤٠، في محاولة لمحاكاة واعية لأكاديمية أفلاطون، تدل على رغبة قوية لفهم الفلسفة القديمة بروح القدماء أنفسهم، والانفصال عن الإسكولائية. وربما يكون أفضل تاريخ يوضع لبداية الفلسفة الحديثة (مع إنه حكم تعسفي إلى حد كبير) هو عام ١٤٥٣، عندما استولى الأتراك على القسطنطينية وقضوا على الإمبراطورية البيزنطية[*]، وجاء معظم الباحثين اليونانيين إلى إيطاليا، وأثاروا فيهم الرغبة لفهم الفلسفة اليونانية القديمة من وجهة نظر علمانية.

وتسمى حقبة الفلسفة الحديثة التي بدأت عام ١٤٥٣ باسم عصر النهضة Renaissance[**]. وتنقسم تقسيماً فرعياً إلى فترتين. الفترة الأولى هي الفترة الإنسانية، وأثناء هذه الفترة (التي تبدأ من ١٤٥٣ حتى موت برونو Bruno عام ١٦٠٠)، كانت قيادة الفلسفة في إيطاليا، وقد استمد بعث الروح في الفلسفة من دراسة الفلاسفة القدماء اليونان واللاتين (بدلاً من فلاسفة العصر الوسيط)، على الرغم من أنه كان هناك أيضاً اهتمام كبير بما أنتجه العلم الحديث من قدر ضئيل. أما الفترة الثانية من عصر النهضة فيؤرخ لها ابتداء من ١٦٠٠ حتى ١٦٩٠ . وهذه الفترة هي القرن الذي لمع فيه فرنسيس بيكون، وتوماس هوبز، في انجلترا، وديكارت، واسبينوزا، وليبنتس، في قارة أوربا. وقد

(*) سقطت القسطنطينية (استانبول الآن) على يد محمد الثاني (١٤٢٩ ـ ١٤٨١) الملقب بمحمد الفاتح عام ١٤٥٣ بعد حصار دام خمسين يوماً، وفتح بذلك الامبراطورية البيزنطية. وكان المؤرخ الفرنسي مولد ميشليه هو أول من استخدم مصطلح «عصر النهضة» الذي بدأ مع سقوط القسطنطينية. وكان المؤرخ الألماني «بركهارت» هو أول من قصره على الفترة ما بين سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ وظهور «ديكارت» ـ علماً بأن جميع هذه الأحكام تعسفية ويراد بها سهولة فهم المراحل التاريخية فحسب (المراجع).

(**) لاحظ أنها مؤلفة من مقطعين الأول Re بمعنى مرة أخرى أو من جديد، والثاني Naissance أو الميلاد، ومعنى ذلك أن الكلمة الأجنبية الدالة على عصر النهضة تعني حرفياً «الميلاد من جديد» فكأن أوربا عندما خرجت من العصور الوسطى قد ولدت من جديد. (المراجع).

قبل جميع فلاسفة تلك الفترة بوعي مناهج ووجهات نظر العلماء الطبيعيين المعاصرين لهم، وقد ساهموا هم بدورهم في بعض الأحيان في الرياضيات والعلوم الطبيعية. ولقد كانوا جميعاً على ثقة من نجاح الفلسفة العظيم في الكشف عن طبيعة الواقع، ولم يتردد معظمهم في تطوير مذاهب. وعلى الرغم من أن تلك الفترة انتهت رسمياً عام ١٦٩٠، فإن بعض فلاسفتها ـ من أمثال ديكارت، واسبينوزا ـ كان لهم تأثير كبير على كثير من فلاسفة القرن العشرين.

ولقد افتتح عصر التنوير بنشر كتاب لوك «مقال في الفهم الإنساني» عام ١٦٩٠ . وكان من بين المفكرين العظام في تلك الفترة: لوك، وباركلي، وهيوم، في بريطانيا العظمى، وفولتير، وروسو، في فرنسا. ولم يكن هؤلاء الفلاسفة بُناة مذاهب محكمة مثل فلاسفة الفترة السابقة؛ لأنهم اعتقدوا أن الموضوع المناسب لدراسة الجنس البشري هو الإنسان لا الكون؛ لقد كان هؤلاء الفلاسفة هادمين أقوياء للخرافة ومناصرين للحرية الفردية وحقوق الإنسان. وقد حركت الثورة الإنجليزية عام ١٦٨٨ فكرهم، وكان تأثيرهم سبباً جزئياً للثورة الأمريكية عام ١٧٧٦ والثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ .

وعلى حين أن المؤرخين اعتادوا أن يضعوا نهاية لتلك الفترة عام ١٧٨١ (عندما بدأت بالتأكيد حركة جديدة في ألمانيا)، فإنه يستحيل وضع تاريخ إيجابي لنهايتها. ويمكن أن نصنّف فلاسفة القرن التاسع عشر في بعض النواحي من أمثال: بنتام، وجون ستيوارت مل، وأوجست كونت، على أنهم استمرار لعصر التنوير. وقد عبّر فلاسفة القرن العشرين من جوانب كثيرة عن روح عصر التنوير من أمثال: وليم جيمس، وجون «ديوي»، وجورج سنتيانا، وبرتراند رسل.

وتبدأ الفترة التالية عادة من ١٧٨١ (العام الذي ظهر فيه كتاب كانط «نقد العقل الخالص») حتى موت هيجل ١٨٣١ . ولقد قاد الألمان العالم بأصالة تفكيرهم الفلسفي وعمقه. ولقد اعتقد كل واحد من الفلاسفة الألمان في هذه الفترة بشكل أو بآخر أن العالم روحي في طبيعته ـ أعني أنهم عبروا عن عقل أو روح كلية. ولقد اتجهت وجهة النظر هذه الشعر والدين، وكان ذلك هو العصر الرومانسي العظيم في الأدب الألماني (جوته، شيلر، وآخرون كثيرون). ولقد عبّر شعراء إنجليز من أمثال: وردزورث، وشيلي،

وكولينوود، وبنسون، وبراونتج، بالإضافة إلى اميرسون في أمريكا، عن أفكار تشبه إلى حد كبير أفكار الفلاسفة المثاليين الألمان. وليس من الضروري أن نفترض أنهم درسوا هؤلاء الفلاسفة في جميع الحالات دراسة دقيقة وشاملة. لقد ألهمت الحركة المثالية مجموعة من أفضل الفلاسفة أواخر القرن التاسع عشر، وقد استمر لها أنصار حتى اليوم، في بريطانيا العظمى وإيطاليا بصفة خاصة.

لقد أصبح من المألوف أن نطلق على الأجيال في تاريخ الفلسفة الحديثة التي أعطيت موت هيجل اسم الفترة المعاصرة. في هذه الفترة واصلت مؤثرات آتية من فترات أخرى عملها، لم يتم قط تأثير أي منها بالفعل. الجديد في الفترة المعاصرة هو تأثير فكرة التطور على الفلسفة، تلك الفكرة التي أصبحت مقبولة قبولاً عامًا في علم الفلك، والجيولوجيا، والبيولوجيا، كما قدمت منهجًا مختلفًا من التفسير للتاريخ والعلوم الاجتماعية المختلفة. والمذهب الواقعي والبراجماتي هما الجاهان مميزان للقرن العشرين، خاصة في بريطانيا العظمى وأمريكا.

ومن ثم يمكننا أن نصنّف قائمة بفترات الفلسفة الحديثة، مع التحفظات التي ذكرناها، جنبًا إلى جنب مع بعض الفلاسفة الذين سنناقش كل واحد منهم في هذا الكتاب على النحو التالي :-

عصر النهضة: الفترة الإنسانية: ١٤٥٣ ـ ١٦٠٠ (برونو)

فترة العلم الطبيعي: ١٦٠٠ ـ ١٦٩٠ (بيكون، هوبز، ديكارت، اسبينوزا، ليبنتس)

عصر التنوير: ١٦٩٠ ـ ١٧٨١ (لوك، باركلي، هيوم)

الفترة المثالية: ١٧٨١ ـ ١٨٣١ (كانط، فشته، هيجل)

الفترة الحالية: منذ ١٨٣١ (شوبنهور، كونت، مل، سبنسر، نيتشه، رويس، جيمس، ديوي، برجسون، الكسندر).

خصائص المذهب التجريبي

وهو الاتجاه الاخر في الفلسفة الحديثة الى جانب الاتجاه العقلي ,وابرز من يمثل هذا الاتجاه الفيلسوف (فرانسيس بيكون)وهو مؤسس هذا الاتجاه بالاضافة الى الفيلسوف (جون لوك)و(توماس هوبز) وغيرهم.

ويؤكد هذا الاتجاه على اهمية الحواس في تحصيل المعرفة على الرغم من انه لايلغي دور العقل بصورة تامة وانما يجعل دوره ثانوياعلى عكس مايفعل الاتجاه العقلي.

-اهم سمات الاتجاه التجريبي

١-يذهب التجريبيون الى ان الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة .

٢-المعرفةالحقيقية عند التجريبين ليست معرفة كلية وضرورية اي ليست معرفة مطلقة ,بل هي معرفة نسبية تجريبية ولهذا فهي تختلف من شخص لاخر ومن زمان لاخر ومن مكان لاخر تبعا لاختلاف التجربة ولهذا فأننا لانستطيع الاعتماد على المبادىء العقلية لنتكلم عن الظواهر دون أختبارها.

٣-ينكر اصحاب الاتجاه التجريبي دعوى العقلين القائلة بوجود مبادئ أولية أوأفكار فطرية ويؤكدون على ان أصل المبادىء العقلية والمعاني الكلية انما يرجع الى تاثيرات الحواس ومن اشهر أقوالهم(ليس في العقل شيء الاوقد سبق في الحس)فقبل التجربة ليس العقل الالوح مصقول أو صفحة بيضاء لاشيء فيهاوالتجربة فقط هي التي تسجل عليها جميع معارفنا.

٤-منهج الاتجاه التجريبي هو المنهج الاستقرائي ويقوم هذا المنهج على الانتقال من الجزئيات الى الكليات حيث اعتمد التجريبيون على المنهج الاستقرائي واقاموا المعرفة على اسس تجريبية رياضية (تحليلية) .

الفصل الثالث

فرنسيس بيكون

١ ـ مدخل

يؤرخ عادة لمرحلة العلم الطبيعي في عصر النهضة ـ كما أشرنا في الفصل الأول ـ من عام ١٦٠٠ حتى عام ١٦٩٠ . في هذه الفترة قمع النبلاء الفساد لإصلاح الدين حرية الفكر في إيطاليا، ولم تشجع الحروب الدينية والنزاعات العمل الفلسفي في ألمانيا. أما في انجلترا، وهولندا، وفرنسا، فكانت الظروف ملائمة بصورة أكبر، وتحققت إنجازات متألقة.

كان الإنجاز الأول العظيم صياغة مناهج جديدة للبحث الفلسفي، فقد رأينا أن أحد العيوب الخطيرة في المرحلة الإنسانية كانت الانتظار إلى منهج مناسب. ومثل هذا المنهج ينبغي ـ من الناحية السلبية ـ أن يصون الفيلسوف من افتراض فروض ليس لها ما يبررها إما لأنها نتيجة لافتراض بدون نقد ما تم قبوله في الماضي، أو من صنع تخمينات متسرعة من جانبه. وينبغي، من الناحية الإيجابية، أن يكون هذا المنهج منطقيًا كالفلسفة الاسكولائية، وأن يكون على الرغم من ذلك منتجًا لاكتشافات جديدة في مجالات البحث التي يهتم بها الناس الآن. وسنجد في الفترة التي نقوم بعرضها الآن بيكون وديكارت يطوران منهجًا جديدًا كان مثمرًا في التطور اللاحق للفلسفة. والواقع أن بيكون قام بإكمال هذا المنهج أكثر من تطويره، والإعلان بطريقة بليغة عن الروح التي يعبر عنها، وجعل الناس يفهمون كلًا من المنهج والروح معًا ، ويقدرونهما على نطاق واسع.

أما الصورة الثانية من الإنجاز، فقد قام بها هوبز، وديكارت، واسبينوزا، ولايبنتس، الذين استطاعوا من طريق مناهجهم أن يشيدوا مذاهب كان لها تأثيرها حتى اليوم الراهن. ويختلف كل مذهب من هذه المذاهب عن الآخر، بيدأ أنها كلها ذات قيمة.

كان بعض هؤلاء الفلاسفة (ومنهم بيكون، وهوبز بدرجة أقل) تجريبيين Empiricists، في مناهجهم، والسبب أنهم كانوا الجليز يمتلئون بالحب البريطاني للتجريب العملي، وأعني بقولنا إنهم تجريبيون في مناهجهم أنهم فلاسفة آمنوا بأن المصدر الأول لكل معرفة

هو تجربة الحواس، وأن التعميمات من المعطيات الحسية تُستمد من الملاحظة والتجربة بصورة استقرائية. أما الفلاسفة الآخرون الذين ذكرناهم، فكانوا في مناهجهم عقليين Rationalists، ويرجع ذلك إلى أنهم كانوا من قاطني القارة الأوربية، ولأنهم تأثروا بالتقدم الذي شهدته الرياضيات والفيزياء في عصرهم، الذي ساهموا فيه جميعاً بصورة شخصية. وقد آمن هؤلاء الفلاسفة بأن العقل مصدر أكثر أهمية للمعرفة من التجربة الحسية، وأن الفلاسفة يجب أن يفكروا إلى حد ما مثل الرياضيين. وكان كل من العقليين والتجريبيين واعين الأفق حتى أنهم أدركوا أن العمل الخلاق في الفلسفة يتطلب تعاون كل من العقل والحواس، وأنه يجب عدم المغالاة في التشديد على الاختلاف بينهما وعدم التقليل من شأنه. لقد بدأت الرحلة بالمذهب التجريبي عند بيكون، ووصلت إلى إنجازاتها الخالقة من طريق المذهب العقلي عند ديكارت، واسبينوزا، وليبنتس.

أ ـ شخصية بيكون

يسبق بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) F. Bacon فلاسفة هذه المرحلة الآخرين المهمين بزمن طويل. ولم يكن وصف «بوب» لبيكون بأنه أكثر الناس حكمة، وتألقاً، ورشاً غير منصف له في سيرته السياسية. فقد كان حكيماً ومتألقاً. فقد أوصى حكومة الجائرا بسياسات بعيدة النظر كانت ستؤدي إلى تنمية الصالح العام لو تم قبولها. غير أنه لكي ينمي مصالحه، ساعد في تنفيذ الأمور التي قررها رؤساؤه، أيا ما كان نوعها. ولكي ينسلق مناصب رفيعة في حظوة الملكة إليزابيث كان له دور فعال بدون داعي في محاكمة أسكس Essex، الذي ـ مع اتهامه بالخيانة والخيانة التي حذرهما منه بيكون ـ كان قبل كل شيء من أعز أصدقاء بيكون، وبذل أقصى ما في وسعه من أجل ترقيته ونجاحه. ولا شك أن تلك حقارة.

وأصبح بيكون قاضي القضاة في عهد جيمس الأول. وفي هذا المنصب قبل هدايا من أولئك الذين أصدر حكماً في قضاياهم بسلطته القضائية، على الرغم من أن أحكامه صدرت بأمانة ووفقاً للقانون فيما عدا استثناءات قليلة أو ربما بغير استثناءات. فقد كان كل فرد يقبل تلك الهدايا لمدة أجيال، وكيف يمكن أن يكون عمل القاضي؟ إنه لم يستطع أن يعيش بطريقة أخرى في ترف رجل يشغل منصباً رفيعاً مثل منصبه. ولقد كان سلوك

جيمس الأول ودوق بيكنجهام، وهو المقرب إليه، مستهجناً للغاية. وربما كان يكون الشخص الأكثر أمانة في بلاط الملك الفاسد. غير أن شخصاً ما لابد أن يكون كبش فداء، وأن يتحمل ويدفع الثمن بسبب سخط مجلس العموم، وبذلك يصرف الأنباء عن جيمس والمقرب إليه وهو «دوق بيكنجهام». ولقد بذل بيكون باستكانة ما في وسعه، لكنه لم يستطع أن يدافع عن نفسه ضد التهم الموجهة ضده. وقام الملك بتخفيف عقوبة بيكون، غير أنه كان مضطراً إلى أن ينسحب إلى الأبد من الحياة العامة. وقضى بيكون الخمس سنوات الباقية من عمره في دراسات تاريخية، وعلمية، وفلسفية مفيدة، على الرغم من أن كتابيه الأكثر أهمية في الفلسفة كُتبا من قبل. وكانت وفاته نتيجة إصابته بنزلة برد عندما كان يبحث في إمكانية حفظ اللحم عن طريق تجميده.

إن الجانب الجذاب من شخصية بيكون هو تحمسه الشديد للعلم والفلسفة. فقد رأى بصورة أكثر وضوحاً من أي من السابقين عليه أو معاصريه مشهد التقدم البشري اللامحدود الذي تقوده المكتشفات العلمية. وعلى الرغم من أن أنشطته السياسية لم تترك له وقتاً لكي يقوم بتلك المكتشفات بنفسه، فإنه علَّم العالم تقدير أهمية البحث وأهمية المناهج التي يُنفذ بها البحث. اهتم كتاباه الفلسفيان الأكثر أهمية بالمزايا التي تأتي من تقدم العلم (١٦٠٥)، والمناهج المناسبة للبحث عن طريق منطقه الاستقرائي الجديد (الأورجانون الجديد عام ١٦٢٠). وحاول أن يحث الحكومة البريطانية على تزويد المؤسسات بالبحث. ومع إنه لم ينجح في ذلك، فإن تأسيس الجمعية الملكية Royal Society التي أُنشئت عام ١٦٦٢، والتي «أصبحت أعظم مؤسسة للعلماء في العالم» تدين بوجودها له. ويعترف «ديدرو» Diderot في نشرة دائرة المعارف الفرنسية الشهيرة بأن مؤلفيها يدينون ليكون. ولو قُدر ليكون أن يعود مرة أخرى إلى العالم في عصرنا هذا، فإنه لن يندهش من التطورات التي حدثت في العلم المحض، ومن التقدم في الاختراعات الآلية، ومن التغيرات التي أحدثتها الثورة الصناعية. لقد قدَّر ما لسكان كتابه الخيالي «أطلانطس الجديدة» من مؤسسات للبحث المنظم الذي أدى إلى اختراع آلات طائرة، وسفن تغوص، وتليفونات، وكاميرات للصور، ووجبات جديدة صناعية، وإنتاج صناعي لمعادن جديدة، ونباتات، وحيوانات، مفيدة للإنسان. وسوف يشعر بخيبة أمل، من ناحية أخرى، لأنه لم تتم ـ على عكس ما كان يتوقع ـ تطورات مكافئة في العلوم الاجتماعية، مع تحسن مناظر في الحياة الاجتماعية.

وترجع شهرة بيكون في الأدب الإنجليزي إلى مقالاته شبه الشعبية، التي تستحق التقدير بسبب أسلوبها القوي، والتعليقات البليغة التي كثيراً ما تكون حكيمة على الناس والسلوك، والاستخدام الموفق للمماثلات، والتشبيهات، والاستعارات. وقد أصبح كثير من أقواله سائغة في لغتنا، إذ يطلب من الأطفال أن يكتبوا في دفاتر تعليم الخط هذه العبارات «الإنسان خادم الطبيعة ومفسرها» و«المعرفة قوة»، دون أن يذكر لهم المدرسون دائماً أن صاحبها هو بيكون. ولمحتوى أعماله الفلسفية الأكثر حرفية، والتي كتبها باللغة اللاتينية، على عبارات رائعة ضغطت فيها الفكرة العظيمة إلى كلمات قليلة. وبهذا المعنى يكون بيكون أستاذاً في الاختصار والتلخيص. وقد حافظ - من ناحية أخرى - على التكرار الكثير لنفس الفكرة بطرق لا حصر لها، ومن المحتمل أن تكون حركة فكره مملة بوجه عام. وربما تكون أفضل طريقة بالنسبة للمبتدئ، لكي يقرأه هي أن يقرأه في مختارات تمَّ اختيارها بدقة، تستحق - كما يقول بيكون - أن «تُمضغ وتهضم» تماماً.

٣ ـ الأوهام

لقد اعتقد بيكون - بوصفه فيلسوفاً تجريبياً - أن المعرفة البشرية تبدأ بالتجربة الحسية ويمكن أن تنمو عن طريق ملاحظات وتجارب دقيقة. ومن هنا لابد أن تبدأ الاستدلالات ببطء وبعناية؛ فلا ينبغي أن نقفز فجأة من وقائع قليلة إلى تعميم سريع. ولا ينبغي أن نترك شيئاً يدون أن نضعه في الاعتبار. والقول بأن القرن الذي تلا «برونو» و«باراسيلوس» بدأ من إنسان يصر على ملاحظات دءوبة وحذر عظيم في استخلاص نتائج، يكشف عن تقدم صحي. إن الفلسفة لا يمكنها أن ترجع إلى دجماطيقية العصور الوسطى، ولا يمكنها أن تبقى مقتنعة بتأملات المرحلة الإنسانية غير الناضجة. لقد رأى بيكون أن الفلسفة لابد أن تُبنى على أسس صلبة، مثل الأسس التي يمكن للعلم الطبيعي وحده أن يقدمها، ورأى أن المنطق يحدد الطريق الذي يستطيع العلماء أن يصلوا بواسطته إلى الاكتشافات، ويعدوا الفلسفة إعادة التفسير.

ولما كان بيكون قد ظهر في هذا العصر، فقد اعتقد بيان أخطاء الماضي، وأصرَّ على أنه يجب البدء من جديد بطريقة جديدة تماماً. وكما يحدث باستمرار في حالة الرجال الذين يقعلون ذلك، كان أحياناً حاداً للغاية في الحكم على السابقين، أي في الحكم على

الفلاسفة القدماء وفلاسفة العصور الوسطى. مع أنه في حالات أخرى أبقى بصورة لاشعورية على كثير جداً من وجهات نظر مضت كان قد نبذها ورفضها.

ويوجد الجانب السلبي من عمل بيكون، أعني رفضه لأخطاء الماضي وتفسيره للمصادر التي جاءت منها هذه الأخطاء، في الكتاب الأول من «الأورجانون الجديد» Novum Organum.

ميزّ بيكون بين أربعة أنواع من الأوهام، أو الأخطاء، التي تلازم عقول الناس وتعوق سعيهم إلى الحقيقة وبحثهم عنها. أول هذه الأوهام هي أوهام القبيلة Idols of Tribe، التي يشترك فيها الجنس البشري كله، وتلازم طبيعة البشر الخالصة. ومن هذه الأوهام الميل إلى افتراض نظام واطراد في العالم أكثر مما هو موجود بالفعل، ولذلك اعتقد العلماء أن الأجرام السماوية تتحرك في دوائر كاملة، وأن نسبة كثافة ما يسمى بالعناصر تساوي عشرة إلى واحد. ومن تلك الأوهام أيضاً إذا تبنينا رأياً ما، فإننا قد لا ننتبه إلا إلى الدليل المؤيد له، ونهمل الدليل المناقض له. وكذلك يفسر اعتقاد الإنسان في الطالع، والأحلام، والتنجيم، وخرافات أخرى. وبوجه عام، فإن الأمثلة التي تؤيد رأياً ما يتنبه إليها في الغالب أكثر من الأمثلة السلبية، على الرغم من أنه يجب إعطاء كليهما أهمية متساوية. ومن تلك الأوهام أيضاً أن الأشياء التي «تقاسم العقل وتدخل إليه مناًبة، وتملأ بالتالي الخيال» تؤثر في الناس بقوة، حتى إنهم يتلزمون إلى نتيجة مؤداها أن كل الأشياء الأخرى لابد أن تكون متشابهة (وهذا ما يسمى الآن بمغالطة التعميم المتسرع). إن «الذهن البشري ليس موضوعياً غير متحيز» بل «تخيم عليه» سحب الانفعالات والرغبات، حتى إن الناس لديهم استعداد لأن يعتقدوا فيما يرغبونه، ولذلك يستعجلون ولا يتأنون في البحث، ويندمون بالتالي على وقائع حقيقية توجد وراء آمالهم، ويأسفون عندما يناقض نور التجربة كبرياءهم وغرورهم. ويعوق الذهن البشري، علاوة على ذلك «بلاغة الحواس، وعجزها، وخداعها»، حتى إن ما يمكن رؤيته مباشرة يفوق المبادئ» غير المرئية التي نستنبط من استدلال قائم على تجارب.

وتأتي هذه الأوهام، أوهام الكهف Cave، وهي خاصة بكل إنسان فرد. لأن كلاً منا يعيش في كهف صغير، أو يعيش في مغارة خاصة، وله طريقة خاصة في التفكير، ترجع إلى الوراثة، والتربية، والعادات، والظروف. ولذلك يغالي بعض الناس عادة في التشابهات بين الأشياء، بينما يغالي بعضهم في الاختلافات بينها، ويحب بعضهم القديم

بإفراط ويحترمون السابقين، في حين أن بعضهم أسرى لما هو جديد من كل نوع.

وثالث هذه الأوهام، وهي أكثر الأوهام إثارة للمشكلات، وهي أوهام السوق «Market» حيث يتقابل الناس معاً، ويتفاهمون عن طريق اللغة. ولأن الكلمات يكون أصلها في عقل الإنسان العادي، فكثيراً ما لا تكون مناسبة لبحث علمي دقيق، فتكون النتيجة أن الناس يتجادلون حول كلمات يعجزون عن تعريفها بطريقة مناسبة. فبعض الكلمات موروثة من آراء خاطئة من الماضي، ويمكن تجنبها عن طريق رفض النظريات التي أدت إليها، مثل «الحظ» والمحرك الأول، وعنصر النار. وهناك كلمات أخرى تضرب بجذور عميقة في الاستعمال البشري حتى إنه يصعب التخلص منها، مثل كلمة «رطب» التي «ليست سوى علامة تنطبق بطريقة فضفاضة على صنوف من أفعال لا يمكن ردها إلى أي معنى مشترك». وحديثنا مملوء بمثل هذه الكلمات التي تؤدي إلى خلط لا حد له.

وآخر هذه الأوهام، أوهام المسرح Theatre «التي تتسرب إلى عقول الناس من معتقدات الفلسفات المختلفة، ومن قوانين البرهان الخاطئ» أيضاً». فجميع المذاهب التي وصلت إلى عصر بيكون لم تكن في رأيه سوى «مسرح كبير جداً يمثل عوالم من خلق (الناس) على غرار نموذج غير واقعي وخيالي». ولعل هذا النوع من الأوهام يدين أرسطو، من حيث إنه مثل للفلاسفة العقليين؛ لأنه حاول أن يضع العالم في عقولات من اختراعه الخاص دون أن يرجع أولاً إلى الطبيعة ويلاحظ الوقائع الفعلية، بل حدد من البداية نتائجه، ثم عاد بعد ذلك إلى التجارب ليؤكد ما قرره سلفاً. وهناك ما هو أشد سوءاً فيما يقول بيكون وهو أنه حتى الفلاسفة التجريبيين السابقين عليه كان ينقصهم منهجه، إذ كانوا يقومون بعملية التعميم من تجارب ضئيلة جداً، تاركين خيالهم يجنح. وهؤلاء هم علماء «السيمياء» (الكيمياء القديمة)، و«جلبرت»(*) الذي حاول صياغة فلسفة كاملة من تجاربه عن المغناطيس. لكن أسوأ من هؤلاء جميعاً أولئك الفلاسفة الذين أفسدتهم الخرافات أو أخلاط اللاهوت. ولقد قيل بيكون نفسه الآراء المعهودة لرجال الكنيسة الإنجيلية الأرثوذكسية في عصره في كتابه «شهادة الإيمان» حيث لا يوجد أي مبرر للشك في

(*) وليم جلبرت W. Gilbert (١٥٤٤ ـ ١٦٠٣) طبيب، وعالم طبيعة إنجليزي قام بتجارب هامة في المغناطيسية. رأى أن الأرض تسلك وكأنها حجر مغناطيس ضخم، وأن مجالها المغناطيسي ناشيء من قوى كامنة داخل كوكبنا لا من قوة طارئة عليه من الخارج، كان أول من صاغ لفظ «الكهرباء» (المترجم).

إخلاصه فيه. فمصدر أركان الدين يعود إلى الوحي، وليس ذلك من اهتمام الفلسفة بالضرورة. وهو يعتقد أن بعض المعتقدات الدينية، مثل وجود الله، يمكن البرهنة عليها عن طريق العقل البشري ويندرج ذلك ضمن مجال الدين الطبيعي. لكن ما يعارضه بشدة هو محاولة إقامة أي شيء علمي أو فلسفي على تطبيق حرفي لتوكيدات الدين الموحى به. إن إقامة مذهب للفلسفة الطبيعية على الإصحاحات الأولى من سفر التكوين أو سفر أيوب هي، كما يقول: «بحث عن الميت بين الأحياء». وقد حاول بيكون، مثل برونو، أن يحرر العلم والفلسفة من اللاهوت الدجماطيقي. ولم نعد اليوم نتوقع أن يدخل عالم من علماء الفيزياء أو عالم من علماء البيولوجيا معتقداته الدينية في دراساته العلمية الخالصة، ولا أن يشعر على أي نحو أنه ملزم بأن يفسر الطبيعة بطريقة تجعلها مطابقة للمعتقدات الدينية. وأصبح هذا الأمر مألوفاً بالنسبة لنا حتى أننا أصبحنا نجد صعوبة في أن نتصور أي قدر من الشجاعة احتاجه هذا الموقف في أوائل القرن السابع عشر.

وعندما نراجع الأنماط الأربعة من «الأوهام» عند بيكون، ندرك أنه بيّن بحق مصادر أربعة مختلفة للخطأ لابد من تجنبها في تفكيرنا. مع ذلك فإننا نجزع في البداية عندما نفكر في أن تلك الأوهام هي أيضاً المصادر الرئيسية لمعرفتنا. فنحن لا نستطيع أن نلاحظ إلا عندما نستخدم المصادر الذهنية المشتركة للبشرية، أو باستفادتنا من أي مواهب غير عادية قد تكون محظوظين بدرجة كافية بإمتلاكها كأفراد. إننا لا نستطيع أن نستدل، إلا في المجالات المجردة الخالصة للرياضيات والمنطق الرمزي، بدون استعمال الكلمات، وإذا أراد الفيلسوف أن يفهمه الناس، يجب عليه أن يستخدم الكلمات في صورتها الشائعة، ولا يخترع رطانة أعجمية خاصة به. ولا يستطيع إنسان حديث أن يرفض تماماً كل ما اختزنه الفلسفة في الماضي وأن يحاول أن يبدأ بداية جديدة تماماً، كما فعل طاليس في العصور القديمة في الفلسفة الطبيعية، وكما فعل سقراط في الفلسفة الاجتماعية. إننا مضطرون إلى أن نلفت النظر إلى المصادر الأربعة كلها التي ـ عندما يُساء استخدامها ـ تسبب «الأوهام». ولو كان بيكون قد توقف هنا، لكان قد قدم بحق تحذيراً مفيداً ضد الأسباب الرئيسية للخطأ. ولكنه فعل ما هو أكثر قليلاً لكي يضعنا على الطريق الصحيح في البحث عن الحقيقة. بيد أن بيكون فعل ما هو أكثر من ذلك كله، فقد قدّم لنا منهجاً جديداً، أعني صياغته للاستقراء.

لقد تصور بيكون كتاب «الأورجانون الجديد» على أنه عمل في المنطق الاستقرائي يحل محل المنطق القديم لدى أرسطو، الذي كان يعتمد على المقاييس الاستنباطية للقياس. لقد عرف بيكون أنه لم ينجح تمامًا في التخطيط لمنهج كامل، غير أنه كان يأمل في أن يكون قد أشار إلى الاتجاه الصحيح الذي ينبغي أن يسير فيه إصلاح المنطق. إن الموضوعات كما نراها بصورة مباشرة تكون معقدة للغاية قبل تحليلها إلى الطبائع البسيطة التي تتكون منها. والعمليات المستمرة، التي تتغير عن طريقها الأشياء، لا يمكن فهمها إلا بعد فهم الطبائع البسيطة نفسها. ومن أمثلة الطبائع البسيطة الحرارة، والبرودة، والكثافة، والجاذبية، والألوان، والأصوات، والروائح، وصفات الموضوعات الأخرى التي تتجلى بصورة مباشرة لحواسنا. وبالنسبة للعمليات المستمرة، فإن بيكون يذكر الطرق التي تنمو بواسطتها النباتات من بذورها، وجنين الحيوانات، وتكوين الذهب والمعادن الأخرى، ومن المحتمل أن يكون في ذهنه كل العمليات التي تحدث بها التغيرات في الطبيعة التي لا يمكن ملاحظتها بصورة مباشرة. ولو أن بيكون عرف قانون الجصور الذاتي، والجاذبية، وبقاء الطاقة في الفيزياء، ونشأة العناصر في الكيمياء، والارتقاء الطبيعي في البيولوجيا، لأطلق عليها اسم «العمليات المستمرة».

ولكي نفهم أي طبيعة بسيطة، لابد أن نكتشف صورتها. وعندما كان بيكون يشير إلى «صور الطبائع البسيطة»، فإنه في بعض الأحيان لم يكن يبتعد عن المذهب الإسكولائي، إذ أن الصورة شيء يشبه «العلة الصورية» الأرسطية، أو تعريف صوري لما عساه أن يكون عليه شيء: سواء أكان شيئًا ساكنًا وجوهريًا. ويبدو تفكيره، في فقرات أخرى، حديثًا تمامًا؛ فالصورة هي القانون أو هي وصف للمسار على نحو ما يحدث في الواقع. وبوجه عام، عندما عالج الصور والطبائع البسيطة، فإنه لم يقدم إسهامًا له قيمة؛ فهذه التصورات بالنسبة للعلم الحديث هي تصورات خاصة جدًا بالعصور الوسطى. لكنه كان أكثر نجاحًا في وضع المنهج الاستقرائي الذي نكتشف بواسطته تلك الصور.

إن مناقشة المنهج الاستقرائي في الكتاب الثاني من «الأورجانون الجديد»، حيث يستخدم بيكون الحرارة كمثال، هي أكثر الفقرات قيمة في كتاباته الفلسفية. فهو يعد قائمة

بكل الأمثلة التي يعرفها، إما عن طريق الملاحظة البسيطة، وإما عن طريق التجربة، وإما عن طريق القراءة، التي تكون فيها الحرارة موجودة في موضوعات من أي نوع أو وصف (وبذلك يكون قد استبق طريقة جون ستيوارت مل في القرن التاسع عشر التي علَّمها للعالم باسم طريقة الاتفاق؛ التي تقول إن جميع الأمثلة التي تحدث فيها ظاهرة لا تتفق إلا في ظرف واحد فقط، الذي نسميه، عندما نجده، علتها. وذلك، بالتأكيد، اختصار لصياغة مل مع حذف التحفظات). ولقد أعدَّ بيكون بعد ذلك قائمة «بالأمثلة السلبية» لحالات مماثلة تمامًا بقدر الإمكان في جميع النواحي لكل حالة من القائمة الأولى، ما عدا غياب الحرارة. فلا يمكن أن تكون أي خاصية موجودة في هذه القائمة الثانية التي تكون موجودة أيضًا في القائمة الأولى صورة الحرارة. فالصفة التي تكون موجودة باستمرار عندما تكون الحرارة موجودة وتكون غائبة عندما تغيب الحرارة، يمكن أن تكون صورة الحرارة (وهذا سبيل دقيق لطريقة مل في الاختلاف).

ويقارن بيكون في القائمة الثالثة حالات تتغير فيها كمية الحرارة، ليرى ما إذا كان هناك أي ظرف آخر يتغير إما بصورة مباشرة أو بصورة عكسية بكمية الحرارة (وهذه هي طريقة التغير النسبي عند مل). ويحاول بيكون بمقارنة القوائم الثلاث بعضها ببعض مقارنة دقيقة إلى ما يسميه «بالثمرة الأولى» لصورة الحرارة. فهو يجد أن الحرارة نوع من الحركة. لأن جميع الحالات التي توجد فيها الحرارة ليس لها سوى خاصية مشتركة واحدة هي الحركة، وجميع الحالات التي تغيب فيها الحرارة لا تختلف عن الحالات السابقة إلا في عدم وجود الحركة، وكمية الحرارة التي توجد في كل حالة تتناسب مع كمية الحركة.

إن بيكون لم يصل إلى كشف جديد فيما يتعلق بطبيعة الحرارة فهو، مثل مل الذي جاء بعده، صاغ فقط الطرق التي استخدمها العلماء بالفعل في عصره، مستمدًا أمثلة توضيحية من مكتشفاتهم. لكن كان له إسهام ذو قيمة ـ مثل مل ـ في تحديد المناهج المنطقية التي استخدمها العلماء في أبحاثهم تحديدًا دقيقًا. وفهم العالم منذ بيكون بصورة جيدة المناهج المناسبة للملاحظة التجريبية. فليس في استطاعة الإنسان أن يفرض قوانين على الطبيعة. كما أنه لا يستطيع أن يعرف بصورة سابقة على التجربة ما هي قوانين الطبيعة. بل لابد له أن يذهب مباشرة إلى الطبيعة، ويلاحظ بصبر، ويجري تجارب، ويستمد نتائجه منها. لقد أعلن بيكون تحرر الفكر الحديث من القبول الأعمى لسلطات الماضي من ناحية، ومن التأمل الخيالي الذي لا ضابط له من ناحية أخرى. وتقول بعبارة أكثر دقة إنه أعلن

ذلك التحرر أكثر مما تأثر به هو نفسه بالفعل. فقد تأثر به «كبلر» و«جاليليو» والعلماء الآخرون في ذلك العصر، فيما يتعلق منه بعملهم. ومع ذلك فإن ليكون الفضل في صياغة روح المنهج العلمي بصورة أكثر وضوحاً من أي شخص آخر في جيله، وفضل العمل بصورة أكبر لكي تكون هذه الروح معروفة ومقدرة بصورة عامة.

لقد واصل بيكون الإصرار على أن الطريقة الوحيدة للتقدم في العلم تكون عن طريق العمل الفني لجمع الملاحظات طبقاً للطرق المبينة في قائمة الحضور، قائمة الغياب، قائمة التغير النسبي. ويحذرنا باستمرار من خطر الاستدلالات التي نقوم بها في أي وقت ونتجاوز الشواهد التي جمعناها. وهو مخطيء إلى حد ما في ذلك. فالعلماء كثيراً ما يستخدمون خيالهم بجرأة في تكوين الفروض. وما أن يتم تقديم فرض ما، حتى تبدأ الاستنباطات التي تنتج عنه بالضرورة لو كان الفرض صادقاً. وبعد ذلك فقط يظهر صدق تلك الاستنباطات أو كذبها عن طريق منافع بيكونية في طابعها بصورة كبيرة أو قليلة. وعن طريق استخدام أولي للفروض، يحدث تقدم بصورة أسرع مما يمكن أن يحدث لو أن العلماء حشوا استخدام خيالاتهم. ويتم في الوقت نفسه تجنب خطأ قبول فروض بوصفها فروضاً صادقة دون اختبارها بدقة، ووضع التجربة الشاقة في الاعتبار. وقد وضع جاليليو فروضه بصورة استنباطية بشأن قوانين السرعة، مستخدماً الرياضيات بصورة واسعة، وعندما تم ذلك، برهن على صدقها عن طريق قياس نسبة السرعة التي تسقط بها الأجسام بالفعل، عندما ألقاها من سطح مائل بناء على برج بيزا المائل. لقد كان التقدم السريع، لا سيما في الفيزياء، ذلك العلم الحديث الأكثر تقدماً والأكثر نجاحاً، نتيجة فروض أولي تجريبية متخيلة، يتم منها استنباطات رياضية، وتتحقق من صدقها عن طريق تجربة فعلية. ولم يفهم بيكون فهماً تاماً المنافع التي استخدمها جاليليو وعلماء آخرون بالفعل في عصره.

ولقد فهم هوبز، وأكثر منه ديكارت، تلك المنافع بصورة أفضل، ووجد ديكارت، كما سنرى، مفتاح المنهج الفلسفي في الرياضيات، ولذلك كان بيكون أحادي النظرة في تلك الدامة بالملاحظة التجريبية عن طريق قوائم مقارنة، وفي إغفاله الاستنباط الرياضي. لقد كان محقاً فيما أكده، لكنه كان مخطئاً فيما تجاهله أو أنكره.

لم يكن بيكون ميتافيزيقياً بدرجة كبيرة، ذلك لأن إصراره على قصر التفكير على نتائج الملاحظة الدقيقة لوقائع جعل ذلك مستحيلاً. ولذلك فإنه يُصنف في القرن

العشرين بوصفه فيلسوفاً واقعياً ليس بالمعنى (الذي كان موجوداً في العصور الوسطى) للمصطلح، ولا بصنف بوصفه فيلسوفاً مثالياً، ولا بوصفه فيلسوفاً شاكاً أو برجماتياً. ولم يكن لديه شك ـ مثل الفلاسفة الواقعيين اليوم ـ في أن العالم الخارجي يوجد باستقلال عن حواسنا وعقلنا. وهو يعتقد أيضاً، مثلهم، أننا نستطيع أن نحصل على معلومات عينية عن طبيعة هذا العالم. صحيح أنه أصر على أن حواسنا تخدعنا لو أخذنا الإدراكات المباشرة بحسب قيمتها الظاهرية، غير أنه يضيف أنه إذا قارنا إدراكاتنا بعضها ببعض بصورة دقيقة، فإننا نستطيع أن نعرف في البداية صور الطبائع البسيطة التي يتكون منها كل شيء. وإذا عرفنا هذه الطبائع البسيطة عن طريق العلم التطبيقي، نستطيع أن نعدل الطبائع البسيطة للأشياء بطرق مفيدة لنا، ونستطيع أيضاً أن نكتشف العمليات المستترة في الطبيعة ونسيطر عليها إلى حد ما، كما هي الحال في تربية النبات والحيوان، وفي صناعة معادن صناعية. وليس هناك، نظرياً، حد يمكن أن نبلغه في معرفتنا. ولا يشترك بيكون مع القدماء القائل الحديث في شيء، لأنه لا يعتقد أن العالم الخارجي ذهني بالضرورة في تكوينه، ولا يعتمد على الأذهان، وليس غرضياً أو غائياً في تنظيمه. ليس بيكون شاكاً علمياً بصورة واضحة لأنه يعتقد في الإمكان اللامحدود لتقدم المعرفة. وهو ليس شاكاً دينياً لأنه يعتقد أنه يمكن البرهنة على وجود الله من الناحية الفلسفية، وأن أركان الدين الوحي به تقوم على الإيمان بسلطة الكتاب المقدس والكنيسة. وهو ليس براجماتياً؛ لأنه يعتقد أن الواقع يوجد مستقلاً عن أي شيء نفكر فيه، ولا يتأثر بما نعرفه عنه، وأنه يجب علينا دراسة الطبيعة كما هي لكي نسيطر عليها، وليست الحقيقة بأي معنى لها رهناً برغبتنا وإرادتنا. وفي حين أن بيكون لم يكن موضع اهتمام المدارس الفلسفية في القرن العشرين، فمن السهل أن نصنفه بالإشارة إليها. فهو واقعي، رغم أنه واقعي من نوع بسيط نسبياً.

References

Life and Personality of Bacon:
R.W.Church, Bacon.
Mary Sturt, Francis Bacon.
T.B. Macaulay, Essay on Bacon.
James Spedding, Letters and Life of Bacon.
Works:
Novum Organum (Various translations).
advancement of Learning.
New Atlantis (in the Works of Francis Bacon, edited by Spedding, Ellis and Heath, Vol. III).
Essays (2, 7, 8, 11, 12, 16, 18, 20, 27, 29, 38, 39, 42, 46, 48, 50, 52, 54, - This is Will Durant's selection of the most interesting).
Interpretation:
James Seth, English Philosophers and Schools of Philosophy.
Will Durant, Story of Philosophy.
H. Höffding, History of Modern Philosophy, Vol. I.
F. Thilly, History of Philosophy.

الفصل الثامن

لـــــوك

١ ـ اتجاه عصر التنوير

حدث إبان فترة العلم الطبيعي لعصر النهضة، كما رأينا، تقدم ملحوظ في تطور مناهج البحث، العقلية والتجريبية، وقد طور الفلاسفة بثقة تامة في هذه المناهج مذاهب تم فيها تحديد مكان مناسب لله، والإنسان، والطبيعة. ولا يزال يُنظر إلى كثير من هذه المذاهب باحترام بوصفها مذاهب ذات قيمة وذات أهمية ومغزى. ومع ذلك، فإنها تختلف، كثيراً، بعضها عن بعض، ويحتوي كل منها على صعوبات خطيرة، ولم يُقبل واحد منها قبولاً عاماً. وقد نشأ في نهاية القرن السابع عشر رد فعل ضد بناء المذهب. وقد بدا أنه من الأفضل دراسة ما هو في المتناول بصورة دقيقة، أي الإنسان نفسه، قبل القيام بمحاولات لتفسير الكون. ولخت الجاهزة بهذا الاتجاه المميز لعصر التنوير في أبيات من الشعر معروفة جيداً لألكسندر بوب يقول فيها:

«اعرف ذاتك، إذن، ولا تتجاسر على معرفة الله.

فالدراسة المناسبة للبشرية هي الإنسان»[1].

ولقد أدرك الناس الآن أنه ولا حتى ديكارت، بإشارته المختصرة إلى الشك العام، قد نفذ بصورة كافية إلى مشكلة «حدود المعرفة البشرية ومداها وقوى الفهم»، أعني إلى ما نسميه الآن «الأبستمولوجيا». وقد أصبح ذلك، بالتالي، هو الاهتمام الرئيسي لعصر التنوير، تلك الفترة التي يؤرخ لها عادة منذ ظهور «مقال في الفهم البشري» للوك، عام ١٦٩٠، وتنتهي بنشر كتاب كانط «نقد العقل الخالص» عام ١٧٨١ . ومع أن كل مفكري هذه الفترة العظام قد تأثروا إلى حد ما بديكارت وفلاسفة عصر النهضة العقليين الآخرين، فإن اتجاههم السائد هو المذهب التجريبي. فالمصدر الأصلي لمعلوماتنا عن العالم الخارجي هو الإحساس، على الرغم من أن معطيات الحس يمكن، ويجب أن، تُحلل، وتفسر، وتنقد، عن طريق العقل. إن المهمة الأولى للفيلسوف هو أن يعد قائمة للمعرفة التي نحصل عليها

مباشرة عن طريق الحواس، وترتبط فلسفة هذه الفترة ارتباطاً وثيقاً بالسيكولوجيا والفسيولوجيا.

ولكي لا يعاق الباحثون، كان هناك في كل مجال من مجالات البحث، دفاع كبير عن حرية الفكر الكاملة، وحرية الحديث، وحرية النشر. وقد نبذ كثير من الفلاسفة جميع دعاوى الكنيسة والدولة في السلطة المطلقة في مسائل الدين والسلوك. ولساند الناس بالحكومة الشعبية وحقوق الشعب. ومن الطبيعي أن تكون بداية الحركة في انجلترا، حيث فُسرت ثورة ١٦٨٨ بأنها ممارسة حق الشعب في تحديد شكل الحكومة، وبعثت الروح في الوطنيين في أمريكا عام ١٧٧٦، وفي فرنسا عام ١٧٨٩ .[*].

ونحن مدينون بالشيء الكثير لعصر التنوير فيما يتعلق بالاستقلال السياسي، والحرية الاقتصادية، والتسامح الديني، وحرية الفكر والنشر، وكذلك فيما يتعلق بإيماننا بالتعليم، وبإمكان التقدم الاجتماعي. وقد تخلص العقلاء إبان تلك الفترة من كل أنواع الخرافة. ولولا عصر التنوير، لكنا لا نزال نحرق الساحرات والزنادقة، ولا نزال نبحث عن شفاء الأمراض ونزال الخط السعيد عن طريق استخدام الرقى والتعاويذ، ونخشى السحر، والعين الشريرة، ونرى الأشباح، وتستشير الدجالين، والمنجمين بالبخت، ومعرفة أحداث المستقبل.

وملاءمة الاسم الانجليزي لتلك الفترة، أعني التنوير، واضحة. فمن الواضح أنه عصر الاستنارة، ولذلك يطلق عليها الفرنسيون اسم «الإنارة» L'Illumination. لقد انقشعت سُحب الغموض العقلي، وسطع ضوء الشمس، شمس الملاحظة الواضحة والعقل؛ ولذلك فإن الاسم الألماني المجازي Au Fklarung (أعني فترة الجلاء والوضوح) له أيضاً ما يبرره.

٢ ــ حياة لوك

ولد جون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) J. Locke في نفس العام الذي ولد فيه إسبينوزا. كانت صحته، مثل أسبينوزا، ضعيفة، ويتحدر من أسرة انتشر بها مرض السل. ولو أنه

(*) تسمى الثورة الأولى في انجلترا عام ١٦٨٨ بالثورة المجيدة التي أكدت الحقوق التي اكتسبها الشعب من الحرب الأهلية التي انتهت بإعدام الملك شارل الأول عام ١٦٤٩ . أما الثورة الثانية فهي حرب الاستقلال ـ استقلال الولايات الأمريكية عن انجلترا، والثالثة الثورة الفرنسية (المراجع).

مات مثله شاباً، لما عُرف كفيلسوف. وكان من المرجح جداً أن يحدث ذلك لو لم يكن لوك حظاً بدرجة جعلته يدرس الطب ويتعلم كيف يحافظ على صحته، وأن يعيش حياة نشطة إلى حد ما، قبيل النهاية التي كان قادراً فيها على نشر سلسلة كتب حددت المسار العام للفكر الفلسفي لما يقرب من قرن من الزمان.

كان لوك رجلاً إنجليزياً انحدر من أصل بيوريتاني(*). ويذكر والده ـ الذي يبدو أنها توفيت عندما كان صغيراً في السن ـ في شيخوخته بأنها كانت «امرأة ورعة جداً، وأما عطوفة» وكان والده محامياً ريفياً، فقد جزءاً من ثروته بإنفاقها على الجيش الذي أعده البرلمان في الصراع ضد شارل الأول. وأشرف الوالد على الصبي الذي فقد أمه، فرباه برفقه تاماً، فكانت النتيجة أن لوك كان ينظر إلى والده باستمرار فيما بعد باحترام وحب عظيمين. ونصح أصدقاءه بأن يربوا أبناءهم بطريقة تشبه الطريقة التي تربى هو بها. واكتسب لوك من تربيته المنزلية أفضل سمات المذهب البيوريتاني ـ مثل الشفقة، والفطنة، والإخلاص، والاستقامة والجد، والاعتماد على النفس، وحب الحرية. حصل لوك على منحة دراسية مكنته من الدراسة في مدرسة وستمنستر في لندن (١٦٤٦ ـ ١٦٥٣)، وكلية كنيسة المسيح في أكسفورد (١٦٥٣ ـ ١٦٥٩)، وكانت كلتاهما تحت سيطرة البيوريتان. وكان «جون أوين» رئيس كنيسة المسيح من أنصار التسامح الديني، وكان المناخ الليبرالي للمكان بصورة نسبية مُهيئاً لأفضل سمة من سمات «الوافركرومل» مستشار الجامعة. خالط لوك وهو طالب في المرحلة الجامعية الملكيين، والجمهوريين، والإنجليين، والتشيخيين، بحرية، كما خالط المستقلين أيضاً. وتعلَّم على الأقل كثيراً من المجادلة والمراسلة مع أصدقائه الطلاب ومن القراءة الخاصة (التي شملت في هذا الوقت وبعده بيكون، وهوبز، وديكارت) كما تعلَّم من المقررات الدراسية التي كان الاهتمام فيها مركزاً على اللغات القديمة، والقواعد، والمنطق الصوري.

وبعد أن أكمل لوك دراسته كطالب في الجامعة، حصل على وظيفة دائمة في أكسفورد وهي «باحث بالدراسات العليا»، وهي وظيفة جمعت بين التدريس والدراسات العليا. تعلَّم في البداية اللغة اليونانية وعلم البيان، ثم تعلم بعد ذلك الفلسفة الخلقية.

(*) البيوريتان أو المتطهرون شيعة بروتستانتية ظهرت في انجلترا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، طالبت بتبسيط طقوس العبادة والتمسك بآداب الفضيلة. قادوا ثورة البرلمان الإنجليزي ضد الملك شارل الأول إبان الحرب الأهلية (المراجع).

وكانت دراساته في الأساس دراسات علمية، وشملت الفيزياء، والكيمياء، وعلم الظواهر الجوية، والطب.

وعالج لوك ـ بقدرته كممارس عام للطب ـ لورد أنتوني آشلي، (الذي أصبح فيما بعد الإيرل الأول لشافتسبري، وهو رجل سياسة مرموق في عهد الملك شارل الثاني)، بإجراء عملية جراحية دقيقة له، التي ربما أنقذت حياته. ولذلك جعل آشلي لوك موضع ثقة دائمة لا في المسائل الطبية وحدها، بل في شئون أسرته وشئونه السياسية أيضاً، وعمل لوك مدرساً خاصاً لابنه (الذي أصبح فيما بعد الإيرل الثاني لشافتسبري)، ورتب لزواج ذلك الابن، الذي أسفر عن سعادة ونجاح وأنجبت الزوجة الشابة والرقيقة ولداً، قام لوك بتربيته، وهو الذي أصبح في السنوات التالية الإيرل الثالث لشافتسبري، ـ واحداً من فلاسفة الأخلاق المهمين في القرن الثامن عشر. وشغل لوك وظائف عامة متنوعة، بوصفه مؤتمناً سياسياً على أسرار الإيرل الأول لشافتسبري، عندما كان شافتسبري في السلطة. وكانت أكثر تلك الوظائف أهمية بالنسبة للقُراء الأمريكان هي أنه عمل سكرتيراً لمجلس المستعمرات وساهم في دستور مستعمرة كارولينا، وقد يرجع الفضل إلى لوك في الإقرار لليبرالية باطرية الدينية في دستور المستعمرة، لأنه هو الذي وافق عليها بالتأكيد. وقد كان للإيرل الأول لشافتسبري دور فعال في تمهيد الطريق لثورة ١٦٨٨ (وقد توفي الإيرل عام ١٦٨٣)، وكان لوك ـ رغم أنه أكثر فطنة ـ ضالعاً ومساعداً في تلك المهام. ونتيجة لذلك، حُرم لوك من وظيفته في أكسفورد بأمر من الملك شارل الثاني واضطر إلى أن يعيش في فارة أوربا في منفى حقيقي.

وكان لإقامة لوك القصيرة في فارة أوربا ـ والتي قضاها تقريباً في هولندا ـ أثرها الجيد على تطوره كفيلسوف، كان الدخل من ممتلكات قليلة تركها والده ومرتب من شافتسبري كافياً لاحتياجاته المتواضعة (وهو لم يتزوج أبداً). وكان لديه وقت فراغ مكنه من أن يتفحص الملاحظات التي أبداها على موضوعات فلسفية منذ السنوات العشرين الماضية، وأن يكمل مخطوطة كتابه «مقال في الفهم البشري»، وأن يؤلف كثيراً من مادة الكتب الأخرى التي نشرها فيما بعد.

وقد ساعدت ثورة ١٦٨٨ لوك في العودة إلى انجلترا مع الأسطول الذي أحضر الملكة ماري الثانية عام ١٦٨٩ .واحتل لوك في عشر السنوات التالية مواقع سياسية عامة ونشر كتبه. وقضى سنواته الأخيرة في عزلة في منزل سير فرانسيس ماشم (Sir F. Masham)،

حيث اهتمت زوجته وابنته اهتماماً كبيراً برجل يحتضر، والذي عُرف بوجه عام بأنه فيلسوف العصر العظيم.

٣ ـ رفض الأفكار الفطرية

هاجم لوك نظرية الأفكار الفطرية في أول كتاب له «مقال في الفهم البشري»، ورفضها لكي يظهر الأرض حتى يستطيع عرض نظريته الخاصة في المعرفة. لقد أحيا مفكرون محافظون في انجلترا ـ معارضين في ذلك يكون، وهوبز ـ التصور الرواقي القديم الخاص بالأفكار الفطرية (Koinai'ennoiai) مفترضين أنها تولد مع العقل البشري وتقبلها جميع الأجناس البشرية قبولاً عاماً. كما زعموا أن هذه الأفكار الفطرية تشمل المبادىء الأساسية المتضمنة في كل استدلال منطقي، مثل قانون الهوية وقانون التناقض (أعني أن الشيء هو هو نفسه، وامن المستحيل بالنسبة لنفس الشيء أن يكون ولا يكون»)، وقل مثل ذلك في معظم المبادىء الأخلاقية الأساسية. الضمير، والله. وكان الدافع، بالطبع، هو العثور على تأكيد أكثر يقيناً لحقائق الأخلاق الثابتة، والدين، والعلم، مما تقدمه الانفعالات المتغيرة ومن الأشياء غير اليقينية التي نستقبلها عن طريق الحواس. ولما كان لوك يؤمن بالله، والأخلاق، والعلم؛ فإنه لم يشارك في النظرة الطبيعية عند رجال مثل هوبز، غير أنه لم يعتقد أنه يمكن تفنيد هوبز عن طريق تأكيد الأفكار الفطرية.

ويصر لوك على أن الأطفال لا يعون، في واقع الأمر، قوانين المنطق. فهم لا يطبقون لأنفسهم في التمييز بين أمنيهم ورغبات الخطوى «إن الشيء يكون هو هو»، وامن المستحيل أن يكون نفس الشيء ولا يكون». ويعيش الهمج بدون صياغة للقواعد المنطق تلك. ويبدو أن لوك ـ عندما كان في الوظيفة ـ تحدث مع الإداريين الذين عادوا إلى أرض الوطن من المستعمرات. إن إشاراته إلى الهمج، وهو في ذلك لا يشبه هوبز وروسو مثلاً، تكشف عن معرفة معينة بالوقائع. لقد عرف لوك أن هناك اختلافاً هائلاً بين الشعوب المتعددة فيما يتعلق بما هو صواب وما هو خطأ، وأنه من المستحيل إعداد قائمة عرضية من مبادىء أخلاقية تقوم على معيار القبول العام. ويستشهد لوك بروايات عن الشعوب الهمجية تقرر أنه ليس لديهم أفكار عن الله والدين على الإطلاق. (ونحن الآن نعرف أن ذلك غير صحيح تماماً، إذا ما اتسع تعريف الدين بصورة كافية، غير أن لوك محق إذا كان يقصد أن

همجاً كثيرين ليست لديهم فكرة عن تلك الموضوعات التي تكون مقبولة تمامًا بالنسبة للمسيحيين أو المتحضرين لأي من الديانات الأكثر تقدمًا، وليست هناك حقائق دينية يمكن النظر إليها على أنها معترف بها بأن تقبلها جميع الموجودات البشرية قبولاً عامًا). ويثبت لوك أنه إذا كان الله قد أعطى الناس أية أفكار فطرية على الإطلاق، فلابد أن يكون قد أعطاهم فكرة فطرية عن ذاته لكنه لم يفعل ذلك.

ويصر لوك على أن الدفاع عن الأفكار الفطرية لا يقول إن بعض الأفكار فطرية بمعنى أن الناس لديهم ميل فطري لاكتسابها حالما يجربون، ويتعلمون استخدام عقولهم؛ لأنه بهذا المعنى تكون كل فكرة فطرية، ولا يكون هناك فرق يقدم بقيةً أعلى وسلطة أبعد لبعض الأفكار التي يمكن تفضيلها على أفكار أخرى.

وإذا كان لوك محقًا في رفضه للأفكار الفطرية ـ ويعتقد معظم الفلاسفة الآن أنه كان محقًا ـ فإن ديكارت كان مخطئًا في قبولها، كما كان فيلسوف القرن المرموق، بل أعظم من فعل ذلك. ولكننا لم يذكر لوك، بالتالي، ديكارت في هجومه على المذهب؟ لماذا وجه انتقاداته ضد فلاسفة أقل شهرة ـ مثل «هيربرت أوف تشيربري»(*)، الذي يذكره بالتحديد، وضد كتاب بريطانيين لم يذكر أسماءهم، حاولوا إحياء المذهب الرواقي الذي لاحظناه من قبل؟. قد تكون الإجابة المحتملة هي أن الإحياء البريطاني للموقف الرواقي كان معارضًا بصورة مباشرة لنزعة لوك التجريبية؛ لأنه إذا كانت كل معرفة تأتي من التجربة، كما يعتقد لوك، فلن يكون أي شيء منها فطريًا في العقل ويمكن البرهنة عليه عن طريق حقيقة القبول العام المزعومة بصورة زائفة. وقد اضطر لوك إلى أن يواجه المذهب الرواقي الذي أدخلت عليه تعديلات ويفنده. وقد لا تبدو نظرية الأفكار الفطرية، من ناحية أخرى، للوك جزءًا جوهريًا من فلسفة ديكارت. ويتفق لوك مع ديكارت على أن الفكارًا معينة تُعرف بأنها صادقة عن طريق حدس مباشر، وأن أفكارًا أخرى يمكن أن تُستنبط منها. وعلى هذا النحو، اعتقد لوك، كما سنرى، أنه من الممكن البرهنة على حقائق الرياضيات والأخلاق، وأيضًا حقائق وجودنا الخاص، وحقائق وجود الله. ومن ثم كان ديكارت، من وجهة نظر لوك، محقًا تمامًا في الاعتقاد أن بعض الأفكار يمكن أن نعرف أنها واضحة ومتميزة عن

(*) هيربرت أوف تشيربري (١٥٨٣ ـ ١٦٤٨) فيلسوف إنجليزي أول من كتب عن الميتافيزيقا. ينظر إليه عادة على أنه مؤسس مذهب الدائم الطبيعي Deism وقد ناقش لوك آراءه عن فطرية الأفكار في كتابه «مقال عن الفهم البشري» الكتاب الأول الفصل الثالث (المراجع).

طريق حدسي مباشر، وأنها، بالتالي، صادقة. لكن خطأ ديكارت الوحيد يتمثل في افتراضه أن هذه الأفكار تكون فطرية ولا ترجع في أصلها إلى التجربة. وربما خشي لوك أنه إذا هاجم في بداية كتابه «مقال في الفهم البشري» ديكارت بالاسم بسبب ما يظهر للقراء تميزاً دقيقاً للغاية (حتى أكملوا الكتاب وفهموا نظرية لوك في المعرفة بأكملها)، فإنه يضللهم عندما يقودهم إلى اعتقاد مؤداه أن فلسفته الخاصة بأسرها تختلف عن فلسفة ديكارت اختلافاً أكبر مما هي عليه بالفعل. ولكن هذا لا ينفي أن تفنيد لوك للأفكار الفطرية يوجه عام يستبعد النسخة التي قدمها ديكارت، ونسخاً أخرى أيضاً[1].

٤ ـ أصل الأفكار

ومن ثم فطالما أنه لا توجد أفكار فطرية، فإن لوك ينتقل في الكتاب الثاني من كتابه «مقال...» إلى تقديم تفسير سيكولوجي عظيم للطريقة التي نكتسب بها أفكاراً عن طريق التجربة. إن عقل الطفل يكون خالياً تماماً من الأفكار، قبل أن يستقبل أي إحساسات من حيث إنها نتيجة مثير لأعضائه الجسمية؛ فهو أشبه بخزانة فارغة من الأدراج، أو صفحة بيضاء (Tabula rasa) لم يطبع عليها شيء، أو قطعة من الورق الأبيض لم يكتب عليها شيء. وقد أسيء فهم هذه الأشكال من الكلام أحياناً. فلوك لا يعني بها سوى أن العقل يكون في تلك المرحلة خالياً من المضامين، وهذه المضامين لا يمكن أن تأتي إلا من التجربة فقط. إن تفسير لوك يقر للعقل بقوى فطرية بصورة واضحة، تركب، وتقارن، وتربط، وتقوم بتجريدات من الأفكار البسيطة التي يستقبلها العقل من قبل بصورة سلبية في التجربة؛ ومجرد أن يكون لدى العقل مادة يؤثر فيها، يقوم بدور فعال في عملية الحصول على معرفة حقيقية.

ولم يحاول لوك أن يعرف الأفكار البسيطة Simple ideas، التي يستطيع أي شخص أن يتعرف عليها عندما تُذكر. وينظر لوك إلى الأفكار البسيطة، مستخدماً عن وعي مماثلة من الفيزياء، على أنها الذرات التي تتألف منها كل معرفة. وهناك الأفكار البسيطة عن الإحساس، التي نستقبلها من حاسة واحدة فقط ـ مثل الألوان، والأصوات، والطعوم، والنغمات، واللمس، والحرارة. والصلابة، وهناك أفكار بسيطة نستقبلها من أكثر من حاسة، مثل المكان، والشكل، والحركة، والسكون. وهناك أيضاً أفكار التأمل الذاتي البسيطة

Reflection، التي تنشأ من وعينا بعملياتنا العقلية وملاحظتها، ومن أمثلتها أفكارنا الخاصة بالإدراك، والتفكير، والشك، والاعتقاد، والمعرفة، والإرادة (ليست العمليات ذاتها). وأخيراً هناك الأفكار البسيطة التي نستقبلها من كل من الإحساس والتأمل الذاتي، مثل الألم، واللذة، والوجود، والوحدة، والتتابع. وكل هذه الأفكار البسيطة واضحة بدرجة كافية، ما عدا فكرة «القوة»، التي نحصل عليها من «الملاحظة» إذ يمكننا أن نحرك أجزاء عديدة من أجسادنا التي كانت في حالة سكون، والآثار التي أحدثتها الأجسام الطبيعية بعضها في البعض الآخر أيضاً» (فأنا أدرك، مثلاً، أن لدي القوة لأن أحرك أصبعي إذا أردت، وأن اللهب لديه القوة لأن يصهر شمعة). إن الذهن لا يستطيع أن يصنع ولا يحطم فكرة بسيطة واحدة، لأننا نستقبل هذه الأفكار بصورة سلبية، من الغير في حالة الأفكار القادمة من الإحساس، ومن ملاحظة عملياتنا الذهنية الخاصة في حالات التأمل الذاتي. (والواقعة التي تقول إننا نستطيع أن نحرك أو نرفض تحريك أصابعنا، وأن نصهر الشمعة أو لا نصهرها كما نشاء، لا تناقض لوك. إن ما يعنيه بوضوح هو أننا إذا شئنا أن نحرك أصابعنا، فإننا لا نفشل في ملاحظة أننا نفعل ذلك، وندرك أن أصابعنا لا تتحرك، وإذا صهرنا شمعة، فإننا لا نستطيع في الوقت نفسه أن نراها غير منصهرة. أو أننا نستطيع، إذا استخدمنا مثالاً من عندنا، أن ننظر إلى القمر أو نحول رءوسنا في الاتجاه المعاكس، لكن إذا نظرنا إلى القمر، فإننا ندرك بصورة لا إرادية شكله الظاهري ولونه. وبالتالي، هناك معنى يكون به ذهننا سلبياً في استقبال الأفكار البسيطة).

وقد بين نقاد لوك الذين جاءوا بعد كانط أننا لا نبدأ عادة عن طريق إدراك إحساسات بصورة منفصلة، ثم نجمعها بعد ذلك معاً، فنحن ندرك موضوعات بوصفها كلاً، ولا يحدث عزل إحساسات منفصلة إلا عن طريق تحليل ظاهري يقوم به السيكولوجي الاستبطاني. غير أن هذا النقد قد فاته إدراك محور نزعة لوك التجريبية، أعني أن جميع معطيات معرفتنا بالعالم الخارجي تأتي إلينا عن طريق أعضاء الإحساس المتنوعة، وأننا لا نستطيع أن نصل إلى نتيجة تجاوز ما يكفله تحليل تلك المعطيات وتفسيرها.

ويعتقد لوك أن أفكارنا البسيطة التي تأتي عن طريق الإحساس تشبه ـ في واقع الأمر ـ صفات الموضوعات التي توجد في العالم الخارجي في حالة الصفات الأولية Primary qualities من صلابة، وامتداد، وشكل، وعدد، وحركة، وسكون. وتلك مسألة نعرفها عن طريق واقعة تقول إن تلك الصفات «لا تنفصل مطلقاً عن الجسم في أي حالة من

حالاته». فلو أنك قمت بتقسيم أي موضوع مادي إلى أجزاء بقدر ما تستطيع أن تدركها، فإنها تستمر في امتلاك نفس الصفات الأولية التي أشرنا إليها، واعتقاد لوك في الحقيقة المستقلة للصفات الأولية مستمد بوضوح من معرفته بالفيزياء والكيمياء؛ فلقد كان صديقًا لبويل ونيوتن، وكان معجبًا بهما. ويقول لوك ـ من ناحية أخرى ـ أنه لا وجود للشيء في موضوع خارجي يشبه تمامًا الأفكار البسيطة الخاصة بالصفات الثانوية Secondary «qualities» ـ مثل الألوان، والأصوات، والأنغام، والطعوم، ودرجات الحرارة. «إن كتلة أجزاء الثلج والثلج، وعددها، وشكلها هي صفات موجودة فيها بالفعل، سواء أدركتها حواس أي شخص أو لم تدركها؛ لأنها توجد في هذه الأجسام بالفعل؛ لكن الضوء، والحرارة، والبياض، أو البرودة، لا تكون صفات موجودة فيها بالفعل، مثلما لا يكون المرض أو الألم موجودًا في الغذاء ذاته. مجرد هذه الصفات من الإحساس، فاجعل العين لا ترى الضوء أو الألوان، واجعل الأذن لا تسمع الأصوات، واجعل اللسان لا يتذوق، واجعل الأنف لا يشم، وسوف نجد أن جميع الألوان، والطعوم، والأنغام، والأصوات، من حيث إنها أفكار جزئية، تتلاشى وتختفي، وترتد إلى عللها؛ أعني إلى الحجم، والشكل، وحركة أجزائها»[10]. ولقد يمكن بيان أن أفكارنا المتعلقة بالصفات الثانوية لا تشبه صفات الموضوعات الفيزيائية الحقيقية عن طريق تجارب بسيطة. «دق أية لوزة أو اسحقها، فإنك ستجد أن اللون الأبيض الناصع سيتبدل إلى لون قذر، وسيتحول الطعم الحلو إلى طعم زيتي. فما عساه أن يكون التبدل الحقيقي الذي يمكن أن يصنعه دق يد الهاون في أي جسم، سوى التباديل نسيجها؟»[11]. افرض أن إحدى يديك ساخنة والأخرى باردة، وأنك وضعتهما معًا في الحال في إناء من الماء المعتدل في درجة الحرارة كما يسجلها «ترمومتر»، فإن الماء سيبدو في هذه الحالة باردًا لليد وداقئًا للأخرى. ولا يمكن أن تشبه إحساسات اليدين في صفاتهما وهما موجودتان في الماء، فهما لا يمكن أن يكونا شبيهًا سوى آثار زيادة أو قلة حركة الأجزاء الصغيرة لأجسامنا تسببها جزيئات الماء.

وبناء على ذلك هناك ثلاثة أنواع من الصفات والقوى في الأجسام: أولها ـ هي الصفات الأولية وهي موجودة بالفعل في الأجسام الفيزيائية سواء أدركناها أو لم ندركها، ولديها قوة إحداث أفكار بسيطة في عقولنا تشبهها تمامًا. وثانيها ـ الأجسام الفيزيائية التي تمتلك بسبب صفاتها غير المحسوسة قوة التأثير بطريقة معينة على حواسنا وإحداث أفكار عن الصفات الثانوية بداخلنا لا تشبه أي شيء في الأجسام الفيزيائية نفسها. وثالثها ـ

لتلك الأجسام الفيزيائية، بسبب التركيب الخاص لصفاتها الأولية، قوة إحداث تغيرات في الحجم، والشكل، والنسيج، وحركة الأجسام الأخرى، لدرجة أن هذه الأجسام تؤثر في حواسنا بصورة تختلف عن تأثير الأجسام الأولى التي ذكرناها من قبل. فمثلاً، عندما تجعل الشمس الشمع أبيض، وتجعل النار الرصاص سائلاً، فإننا نتبين أن هاتين صفتان من الدرجة الثانية.

ويكوّن الذهن أفكاراً مركبة Compound ideas من أفكار بسيطة، بطرق ثلاث أساسية. فالذهن قد يربط أفكاراً بسيطة عديدة في فكرة مركبة واحدة، مثل الجمال، العرفان بالجميل، الإنسان، الجيش، أو الكون. أو أنه يربط فكرتين، سواء كانتا بسيطتين أو مركبتين، معاً، ويضعهما بجانب بعضهما البعض لكي يكوّن وجهة نظر عنهما في الخيال، دون أن يوحدهما معاً في فكرة واحدة، يحصل العقل بواسطتها على جميع أفكاره عن العلاقات، «مثل الأب والابن، أكبر وأصغر، العلة والمعلول». وقد يجرد العقل فكرة من الأفكار التي تلازمه، ويجعلها ممثلة لجميع الأفكار الأخرى من نفس النوع، «فالبياض» مثلاً يتم فصله عن الأفكار البسيطة الأخرى التي تظهر معاً معها في أجسام مختلفة مثل الطباشير، والثلج، واللبن، ويجعلها كلاً Universal. ومن ثم فإن العمليات الثلاث الرئيسية التي يكوّن العقل من طريقها أفكاراً مركبة هي الضم، والعلاقة، والتجريد. ولا يبدو أن تفكير لوك هو أن الذهن يكون أفكاراً مركبة بصورة تعسفية أو بصورة مقلقة. فعندما يقوم الذهن بوظيفته بصورة صحيحة، ينتج أفكاراً تقابل العالم الخارجي على نحو ما يوجد بالفعل، بغض النظر عن العقل نفسه. وبمعنى آخر، كان لوك مبشراً بالمذهب الواقعي النقدي في القرن العشرين(*). إذ أنه يعتقد أن العالم يوجد بصورة مستقلة عن ذهننا. فالذهن يستقبل أفكاراً بسيطة ناتي من الإحساس نتيجة مثيرات تثيرها الموضوعات الخارجية. وتقابل تلك الأفكار البسيطة حقيقة واقعية خارجية في حالة الصفات الأولية، بينما يستقبل الذهن أفكاراً لا تشبه العلل الخارجية للمثير في حالة الصفات الثانوية، لكن

(*) الواقعية النقدية مذهب فلسفي يدور حول معرفتنا بالعالم الخارجي. ازدهر في أواخر القرن التاسع عشر حتى أربعينيات القرن العشرين، وكان أعظم ممثليه د. هيكز D. Hicks (المولود ١٩٤١) في جامعة كمبردج، وسيلرز R.W.Sellars في الولايات المتحدة، رفض المثالية كما رفض الواقعية الساذجة (المراجع).

داخل حدوده مهمة، كثيراً ما لا يكون من الممكن تمييز طبيعة تلك الأفكار عن طريق التجربة والعقل.

ويشكل الذهن من خلال أنشطته ثلاثة أنواع مختلفة من الأفكار المركبة؛ وهي الأعراض والجواهر والعلاقات. أما الأعراض فهي أفكار مركبة لا نفترض أنها موجودة بذاتها من حيث إنها أشياء مستقلة أو موضوعات مستقلة بذاتها. وبعض الأعراض بسيطة، ولا تعدو أن تكون تنوعات، أو روابط لنفس الفكرة البسيطة، دون خليط من أي فكرة أخرى، والمثال الأكثر وضوحاً لذلك: الأعداد، مثل فكرتي «الدستة» أو «العشرين»، اللتين تتكونان عن طريق تكرار الوحدة أو العدد واحد. والمكان فكرة بسيطة، يمكن تعديلها بطرق مختلفة، إما بسبب ملاحظات الأشياء الموجودة أو كنتيجة للاستدلال المجرد. ويسمى المكان الذي ننظر إليه على أنه خالص بوصفه طولاً «بالمسافة» أما إذا وضعنا في الاعتبار الطول، والعرض، والارتفاع، فيصبح «سعة» Capacity. وبأي طريقة نتصوره، فإنه يكون «امتداداً» extension. وقد اهتم لوك ـ عكس ديكارت ـ ببيان أن الامتداد فكرة تختلف عن الجسم (أو الكتلة، كما نقول في الفالب)، وأنه يمكن تصور المكان الفارغ أو الخواء. والتتابع فكرة بسيطة نعرفها عن طريق التأمل الذاتي، وهي مستمدة، كما يرى لوك، من ملاحظة تتابع أفكار في أذهاننا؛ فمن طريق ملاحظة مسافة في أجزاء هذا التتابع، نحصل على فكرة الامتداد الزمني، ثم يبحث الذهن عن مقياس للديمومة، وبذلك يصل إلى فكرة الزمان، التي تحسب بالظهور الدوري للشمس والقمر، طالما أن ظهورهما ثابت، ومنتظم، ويمكن للبشر جميعاً ملاحظة ذلك. كما أننا نصل إلى فكرة الأزل عن طريق تخيل عمليات القياس التي تستمر بلا نهاية. ويناقش لوك أيضاً أعراضاً بسيطة من أنواع أخرى كثيرة، مثل أعراض الحركة، والصوت، واللون، وعمليات الفكر، واللذة والألم، والقوة، والخير والشر، وحرية الإرادة، والسعادة. ويبدو أنه ينظر إلى جميع هذه الأعراض على أنها أعراض بسيطة، على الرغم من أن بعضها يبدو ـ بصورة أكثر ملاءمة ـ أعراضاً مركبة وفقاً لتعريفاته.

والأعراض المركبة هي أفكار مركبة تتكون من أفكار بسيطة من أنواع مختلفة، يضعها نشاط الذهن في فكرة مركبة؛ فالعرفان بالجميل، والجمال، والإلزام، هي نماذج لتلك الأعراض. ويتألف القانون والأخلاق من أعراض مركبة. وجميع هذه الأفكار هي أعراض، لأنها ليست موضوعات توجد بصورة مستقلة، مثل الجواهر.

أما الجواهر Substances، عندما يستخدم لوك هذا المصطلح بالإشارة إلى أفكار مركبة، فهي تجمعات لأفكار بسيطة، تؤخذ لتمثل أشياء جزئية متميزة قائمة بذاتها». وبهذا المعنى تكون فكرتنا عن قطعة من الرصاص جوهراً. ودعنا نحلل هذا المثال الجزئي. يخبرنا لوك بأن هذه القطعة من الرصاص تحتوي على الفكرة البسيطة عن اللون الأبيض الباهت، بدرجات معينة من الثقل، والصلابة، وقابلية الطرق، وقابلية الانصهار، مع أفكار نوع معين من الشكل وقوى الحركة. غير أن لوك يقول ـ أكثر من ذلك ـ إنها تتضمن فكرة أخرى، والتي يسميها أحياناً فكرة الجوهر، والتي يجد أنه من المستحيل أن نغوص في شرحها؛ فهي «حامل Substratum غير معروف» تلازمه صفات أخرى. وبدون هذا الحامل لا يمكن أن توجد صفات الرصاص الأخرى من حيث هي صفات لموضوع فيزيائي حقيقي، لأنها ستكون غير ملموسة مثل المكان، والديمومة، والجمال، أو العرفان بالجميل؛ أي أنها لا يمكن أن تؤلف بذاتها شيئاً فيزيائياً حقيقياً، مثل قطعة من الرصاص. فكر في أي موضوع أيًا كان من حيث إنه يوجد بذاته وليس بوصفه خاصية لشيء آخر، فإنك تدرك أن فكرتك المركبة هي لمجميع لأفكار بسيطة مختلفة أو من صفات زائد الفكرة التي نقول بأن هناك حاملاً واقعيًا تلازمه.

ويستخدم لوك، كما نرى، كلمة «جوهر» على الأقل بثلاثة معان مختلفة؛ فهو يستخدمها أحياناً لتعني أي موضوع موجود روحي، أو فيزيائي. بينما يستخدمها في أحيان أخرى لتعني فكرتنا المركبة عن هذا الموضوع. ويستخدمها أيضاً لتعني الحامل المجهول الذي تلازمه صفات الموضوع التي يمكن ملاحظتها. وكثيراً ما يخطيء لوك بسبب استخدامه نفس المصطلح بعدم الكترات على أنه فكرة، وعلى أنه كيان مستقل تشير إليه الفكرة. وقد أدى ذلك إلى غموض ملحوظ في تفسيراته، التي هاجمها نقاده أحياناً بشدة أكثر مما تستحق، قائلين أنه كتب قبل أن تنشأ المجادلات الابستمولوجية في القرن التاسع عشر، وأنه لم يكن من الممكن أن نتوقع منه أن يضع في ذهنه تمييزات بسبب هذه المجادلات. وسوف تُستخدم كلمة «جوهر» في هذا الفصل وفيما بعد بالمعنى الأول من المعاني الثلاثة التي ذكرناها من قبل (أعني من حيث إنه موضوع موجود بصورة مستقلة)، أما «الفكرة المركبة عن الجوهر» أو العبارة المماثلة، فإنها تستخدم بالمعنى الثاني (أعني فكرة عن هذا الموضوع)، وتُستخدم كلمة «حامل» بالمعنى الثالث (أعني الشيء المجهول الذي تلازمه صفات يمكن ملاحظتها).

ويلاحظ لوك أنه من اليسير كما أنه من الضروري الإيمان بوجود جواهر روحية على نحو ما نؤمن بوجود جواهر مادية. لأن عملياتنا الذهنية المختلفة كالتفكير، والتصور، والإرادة، التي تؤلف الجوانب التي يمكن ملاحظتها من أذهاننا، لا يمكن أن تطوف في الهواء بذاتها؛ بل لابد من وجود حامل، أيضاً، تلازمه، أي لابد من وجود نفس دائمة أو ذات دائمة. فتفكيرنك المركبة عن ذاتك تستلزم أنك نوع ما من الموجود الذي يفكر، ويتذكر، ويكره، ويحب، إنك لست مجموعاً فضفاضاً من أفكار طافية دون أن يكون هناك شيء جوهري ورامها.

وقد كوّنت أذهاننا فكرتنا المركبة عن الله عن طريق تضخيم فكرة اللامتناهي لتلك الأفكار الخاصة بالوجود، والديمومة، والقوة، والسعادة، والمعرفة، وصفات أخرى خيرناها في ذواتنا، وشعرنا أن امتلاكها أفضل من أن تكون بدونها. وتلك هي الطريقة التي اكتسبنا بها فكرتنا عن الله، الذي ـ من حيث إنه يوجد بالفعل ـ يفوق بصورة لا نهائية أي فكرة نستطيع أن نكونها عنه.

والنوع الثالث من الأفكار المركبة التي يميزها لوك هو العلاقات Relations. وتلك الأفكار نحصل عليها عن طريق مقارنة أفكار بعضها ببعض. وأي علاقة تستلزم أشياء مرتبطة. فإذا تحدثت عن «زيد» من الناس من حيث إنه إنسان، لا يرتبط بأشخاص آخرين، فإنني لا أفكر فيه إلا من حيث إنه مثال للنوع البشري، لكنني إذا قلت إنه زوج وأب، فإنني أقصد أشخاصاً آخرين يرتبط بهم. وقد لا يرتبط شخص ما بعلاقة معينة دون أن يتغير في نواح أخرى؛ «فزيد» لا يكون أباً بفقدانه ابنه، لكنه قد لا يتغير في جوانب أخرى. (وذلك ما يعرف الآن بمذهب «تخارج العلاقات»، أي أن العلاقات لا تغير حدوداً مترابطة، لأنها خارجية عنها). والعلاقات الهامة هي علاقة العلة والمعلول، والهوية، والاختلاف. فعندما ندرك حدثاً يتبعه حدث آخر باستمرار، نسمي الحدث الأول العلة، ونسمي الثاني المعلول؛ ونحن نفترض أن قوة ما أو فاعلية تنتقل من العلة إلى المعلول. وعندما نخبر مجموعة من أفكار في وقت معين ومجموعة مشابهة بصورة دقيقة في نفس المكان في وقت آخر، فإننا نفترض الوجود المستمر لموضوع واحد. ونحن نجد هوية معينة بين ثمرة البلوط وشجرة البلوط التي نشأ منها، وبين الطفل والرجل العجوز الذي أصبح كذلك بمرور الزمن، ونحن نوحد ذواتنا بذكرياتنا الخاصة بما فلناه وبما فعلناه منذ سنوات. وقد اتفقد هيوم فيما بعد وجهات نظر الحس المشترك تلك عن علاقة العلّية، والهوية. وبالتالي لوك أيضاً

العلاقات الزمانية، والمكانية، والأخلاقية، وعلاقات أخرى. وينظر إلى بعض تلك العلاقات على أنها توجد في الواقع ويكتشفها الذهن بصورة صحيحة، في حين أن هناك علاقات أخرى خلقها الذهن بصورة تعسفية وخيالية. وبعض من أفكارنا واضح ومتميز وبعضها غامض، وبعضها صادق، وبعضها كاذب، وكل ذلك يتوقف على الموضوعات (وبتعبير لوك «النموذج الأصلي») الموجودة في الواقع التي تمثلها. فأفكارنا عن الجواهر، على سبيل المثال، قد تكون صادقة إلى أقصى حد، غير أنها لا تكفي بالتأكيد وليست واضحة وضوحاً تاماً. ونحن أحياناً ننتقل، في التفكير، انتقالاً منطقياً من مسألة إلى أخرى، بينما يكون تداعي فكرة مع فكرة أخرى انتقالاً محضاً في بعض الأحيان. وتُعدّ معالجة لوك لتداعي الأفكار خطوة هامة في تطور المذهب، في تاريخ السيكولوجيا.

٥ ـ اللغة

يقدم لوك ـ في الكتاب الثالث من «مقال» ـ تحليلاً لاستخدام الكلمات وسوء استخدامها، وهو بذلك يساهم في فلسفة اللغة. لقد قدم بيكون ـ وهو فيلسوف تجريبي سابق ـ تحذيرات ضد «أوهام السوق»، ومغالطة افتراض أن تكون الكلمات أشياء موجودة بالفعل (مغالطة التشخيص أو التشيؤ، كما تسمى الآن)، غير أنه لم يبحث الموضوع أبعد من ذلك. وقدم لوك تفسيراً أكثر اتساعاً للغة من وجهة نظر تجريبية واسمية. وكان مضطراً إلى أن يفعل ذلك لكي يفند تلك الأنواع من المذهب العقلي الذي كان لا يزال موجوداً في عصره والذي كان ينظر إلى المفاهيم أو الكليات على أنها حقائق واقعية قصوى ذات وجود مستقل خاص بها، ويمكن أن نستمد من تعريفاتها معرفة أبعد دون ملاحظة تجريبية. ولوك ليس فيلسوفاً عقلياً بهذا المعنى للكلمة. والكليات عنده، على خلاف أفلاطون، ليست حقائق واقعية مستقلة تشارك فيها الأشياء الجزئية، أو تكون نسخاً منها. ولا يعتقد لوك مع أرسطو أن الكليات توجد في الأشياء جزئية. فهو على العكس، لأنه يبدأ بأفكار بسيطة خاصة بالإحساس والتأمل الذاتي من حيث إنها المصادر الأصلية لكل معرفة بشرية، فإنه يجد أن الكيانات الوحيدة التي توجد بذاتها بالفعل هي أشياء جزئية فردية أو هي جواهر.

ومن الملائم جداً بالنسبة لنا أن نسمي شيئاً جزئياً بكلمة أو نطلق عليه اسماً، لكن

يكون هناك تواصل بيننا وبين الآخرين، ولكي نفكر لأنفسنا. ومن المستحيل، على أية حال، بالنسبة لنا أن نطلق اسماً ملائماً منفصلاً لكل شخص أو شيء جزئي. ولذا فإننا نطلق اسماً واحداً على مجموعة من أشياء متشابهة. ونحن نستطيع أن نفعل ذلك بسبب قدراتنا الخاصة على المقارنة والتجريد. إن الطفل الصغير يدرك في الحال أمه ومربيته ويتعلم أن ينادي عليهما قائلاً «ماما» و«مربية». وهو يجرد في الحال الخصائص المشتركة لأشخاص آخرين ويطلق عليهم جميعاً دون تمييز «رجال». وأحياناً تكون مقارنات الطفل وتجريداته ضحلة، ولذلك قد يطلق على الريش الأصفر الموجود في ذيل الطاووس اسم «ذهب». ويصبح بعد ذلك أكثر دقة في ملاحظاته، ويعطي لفئة واحدة من الموضوعات يكون لكل منها نفس الصفات الثابتة اسم «الذهب»، ويعطي لفئة أخرى من موضوعات اسم «الرصاص».

ونحن لا نعرف الماهية الحقيقية للرصاص أو الذهب أو أي شيء مادي آخر؛ أعني لا نعرف الأساس الذي يكمن وراءها أو المبدأ الذي يجعلها على ما هي عليه بالفعل. ولا نستطيع أن نميز فئات الموضوعات إلا عن طريق التركيز على صفتين أو أكثر ندرك أنهما متلازمتان باستمرار. ويمكننا عن طريق تلك الصفات فقط أن نسمي الأشياء، وأن نعرفها، ونميز بعضها عن بعض. وتلك الصفات لا يمكن أن تمدنا إلا بماهية اسمية، أعني علامة لهوية، أو لاسم. فعندما نعرّف الإنسان بأنه «حيوان عاقل»، فإننا نخصص للإنسان «ماهية اسمية» فحسب، صفة ملائمة تميز عن طريقها الناس من الحيوانات الأخرى؛ لنحن هنا لم نحدد الماهية الحقيقية أو الطبيعة الجوهرية للإنسان في هذا التعريف (كما افترض أرسطو خطأ).

ولذلك فإن الأنواع والأجناس الموجودة في المنطق (الفئات والفئات التي تندرج تحتها) عند لوك، ليست سوى اختراعات من أجل مصلحة الإنسان. فقد تكون تصنيفاتنا دقيقة بصورة تكفي أغراضنا، غير أنها لا تنبع بالضرورة التمييزات الفعلية للطبيعة؛ فهي تفيدنا فقط في أن نضع كتلة من الشعر والكلب طويل الشعر داخل نفس النوع، وأن ننسب كلب صيد والفيل إلى نوعين مختلفين. ليست هناك نباتات، ولا حيوانات، ولا موضوعات في الواقع ثابتة بصورة مطلقة ولا تتغير عند لوك. فكلماتنا هي التي تتغير فحسب. فجميع الأشياء التي توجد، ماعدا الله خالقها، عرضة للتغير، فما كان عشباً يصبح لحم ضأن وينحله بعد ذلك جسم الإنسان؛ ولا تبقى بالتالي سوى كلمة «عشب»،

و«ضأن»، و«إنسان» ثابتة لا تتغير، ولا يبقى أي موضوع في العالم الخارجي ثابتاً دون أن يتغير. ولم يعرف لوك شيئاً عن التطور البيولوجي، لكنه تبع التراث الاسمي والتجريبي البريطاني الذي انحدر من «وليم أوكام»، وأنكر ثبات الأنواع في المنطق، وواصل خط التفكير الذي سوف يمكّن مفكراً آخر ـ في القرن التاسع عشر ـ وهو تشارلز «داروين» من أن يقدم المغزى الكاسح لهذا المبدأ في البيولوجيا.

وبالتالي، لا نستطيع ـ في حالة الجواهر ـ أن نكتشف الماهيات الحقيقية التي تؤلفها، فنحن لا نستطيع حتى أن نعرف ماذا يوجد في الطبيعة النهائية للذهب يجعله أصفر اللون، وثقيلاً، وقابلاً للسحب والطرق، وقابلاً للذوبان في الماء الملكي، فكلمة «ذهب» ليز ببساطة مجموعة من موضوعات لها مجموعة من صفات مشتركة ثابتة، وتعريفنا لها هو تعريف اسمي نحسب من أجل مصلحتنا نحن. وفي حالة الأعراض البسيطة، من ناحية أخرى، عندما نتأمل أفكاراً بسيطة في تغيراتها وارتباطاتها، نستطيع أن نصوغ تعريفات تقوم على الماهيات الحقيقية للأعراض، كما هي الحال في علم الهندسة، حيث يمكننا أن نبين كيف تنتج خصائص المثلث المتنوعة من تعريفه. وهذا هو السبب في قدرة الرياضيات على البرهان، في حين أن العلوم التي تعالج الجواهر ليست لديها تلك القدرة. والتعريفات تكون أكثر تعقداً في حالة الأعراض المركبة، فمن مصلحة بشرية خالصة، نصوغ مثلاً، كلمات مثل «قتل»، وليز بالدلي قتل إنسان من قتل كبش بسبب طبيعة ما قُتل، وليز «قتل المرء أباه» عن أشكال أقل بشاعة للقتل بسبب العلاقة بين القاتل والضحية. وكثيراً ما لا يمكن لكلمة واحدة أن تترجم غرضاً مركباً في لغة ما إلى لغة أخرى، فليس هناك، مثلاً، مرادفات إنجليزية للكلمة اللاتينية متعطف «Verecundia»، والكلمة العبرية قربان «Corban»، وتشير كلمات قانونية كثيرة في لغات أخرى إلى ممارسات ليست معروفة لنا أو ليس من المهم تماماً أن نجد لها أسماء في مفردات تصوراتنا اللغوية. وما يصدق على الكلمات القانونية يصدق على الأعراض المركبة بوجه عام. ومع أن الأعراض المركبة هي في الغالب تجمعات لأفكار جمعها الذهن معاً باختياره، فإن ماهيتها الحقيقية هي من صنعنا نحن، ويمكننا ـ إذا كنا منتبهين ـ أن نعرفها تعريفاً واضحاً ونستخدمها بصورة متسقة. وكلمة الأخلاق مثال لأعراض مركبة صنعناها نحن، ويعتقد لوك أنها يمكن أن تصبح علماً يمكن البرهنة عليه مثل الرياضيات.

٦ ـ المعرفة

يصل لوك ـ في الكتاب الرابع والأخير من كتابه «مقال..» ـ إلى نتائجه النهائية التي تخص طبيعة المعرفة البشرية ومداها.

يعرف لوك المعرفة بأنها إدراك اتفاق أفكارنا واختلافها. وهذا الاتفاق أو الاختلاف هو على أربعة أنواع:

النوع الأول هو الهوية أو التباين؛ ونعني به أن الفعل الأصلي للعقل في إدراك أفكاره الخاصة بالإحساس والتأمل الذاتي يميزها بعضها عن بعض؛ فلا شيء أكثر وضوحاً من قولنا بأن «اللون الأبيض» و«الدائرة» ليسا هما «اللون الأحمر» و«المربع». والنوع الثاني هو التمييز المباشر للعلاقات بين الأفكار؛ وذلك أمر واضح بصفة خاصة في الرياضيات. أما النوع الثالث فهو ملاحظة معية الأفكار أو عدم معيتها في نفس الموضوع، وبصفة خاصة في الجواهر. ففي حالة الذهب نجد أن «الثبات» أو قوة البقاء في النار بدون أن يتآكل أو يفنى، هي فكرة تلازم باستمرار وترتبط بنوع معين من شيء أصفر اللون، وله ثقل، ومرن، وقابل للسحب والطرق، وقابل للذوبان في «الماء الملكي aqua regia»، يؤلف فكرتنا المركبة، التي نعني بها كلمة ذهب ». أما النوع الرابع فهو معرفة الوجود الحقيقي،معرفة ما يقابل الفكرة في العالم الخارجي؛ ويذكر لوك معرفتنا بوجود الله كمثال. وكل معرفة تكون لدينا أو يمكن أن نكتسبها، تندرج داخل هذه الأنواع الأربعة من الاتفاق أو الاختلاف. وقد تكون المعرفة فعلية actual، أي وجهة النظر الحالية التي تكون لدى العقل عن أفكاره، أو قد تكون بحكم العادة habitual، كما هي الحال في الحقائق المستقرة في الذاكرة.

وهناك ثلاث درجات للمعرفة : وهي المعرفة الحدسية، والمعرفة البرهانية، والمعرفة الحسية. وأكثر هذه المعارف يقيناً هي المعرفة الحدسية، التي يستقبل فيها الذهن اتفاق أو اختلاف فكرتين دون توسط أي فكرة أخرى. ومن طريقها نعرف أن اللون الأبيض ليس هو الأسود، وأن الدائرة ليست مثلثاً، وأن ثلاثة تساوي واحداً مضافاً إليه اثنان. وعندما لا يستطيع العقل أن يجمع بين فكرتين بصورة واضحة ولا تكفي للمقارنة بينهما بصورة مباشرة، فإنه يستطيع في الغالب أن يحدث تلك المقارنة عن طريق توسط أفكار أخرى، وتلك هي المعرفة البرهانية، التي تعتمد على براهين، وعلى الرغم من أنها ليست على هذا القدر من السهولة والوضوح، فقد تكون صحيحة تماماً إذا ما تم التحقق من كل خطوة

منفصلة عن طريق الحدس. ويكون مدى المعرفة الحدسية محدوداً بنطاق الأفكار التي نمتلكها، فهناك الكثير في الواقع مما لا يكون لدينا عنه فكرة على الإطلاق. والمعرفة البرهانية يقيدها عجزنا المستمر على إيجاد روابط منطقية بين الأفكار. ويتصور لوك منهجي الحدس والبرهان بنفس الطريقة التي يتصورها ديكارت وإسبينوزا، غير أنه يقصر إمكان تطبيقهما على فهم الاتفاق والاختلاف في أفكارنا بعضها عن بعض. إن كلاً من ديكارت واسبينوزا لم يعتبرانا عما إذا كانت أفكارنا تتفق مع العالم الخارجي أم لا.

غير أن هذين النوعين من المعرفة يجعلان الاستدلال في الرياضيات والأخلاق مؤكداً، ويقدمان برهاناً على وجودنا ذاته. وموقف لوك هنا موقف قوي من حيث المبدأ. ففي هذين المجالين ينظر إلى الحقيقة على أنها تتضمن اتفاق الأفكار بعضها مع بعض، وليس مع حقيقة واقعية خارجية. ويتفق رياضيون كثيرون مع لوك في أن مشكلة الدقة في مجالهم هي بحسب مشكلة التعريفات والاستدلال المتسق من هذه التعريفات. فمن تعريف المثلث في الهندسة الأقليدية، يتبع أن مجموع زواياه الثلاث يساوي زاويتين قائمتين، وبالتالي فإن أي موضوع قد يوجد في الطبيعة لا ينطبق عليه ذلك، لا يكون مثلثاً. ولذا فإن البرهان الرياضي صحيح بصورة مطلقة إذا كان متسقاً اتساقاً داخلياً. وعلى الرغم من أن المرء لا يقبل آراء لوك في الأخلاق بالتفصيل، فلا يزال هناك فلاسفة أخلاقيون قد يتعاطفون من حيث المبدأ مع نظرية مشروعية الأخلاق عند لوك. إنه من الممكن - كما يرى لوك - أن نصل بصورة حدسية إلى مبادىء أساسية يقينية للإلزام الخلقي الذي يمكن أن نستنبط منه نسقاً ما. ولا يهمنا إذا كان هناك شخص ما سوف ينفذ بالفعل كل مبادىء ذلك النسق في سلوكه؛ إذ ينبغي عليه أن يفعل ذلك إذا كان النسق ذاته مشروعاً أصلي، إذا تم إقرار الحدوس بصورة صحيحة، وتم استنباط النتائج التي تلزم عنها بصورة متسقة. (والواقع أنه لم ينجح أي فيلسوف، في تقديم نسق برهاني للأخلاق لاقى قبولاً واسع النطاق).

ويعتقد لوك أننا نستطيع أن نعرف وجودنا الخاص معرفة حدسية. «ألا يمكن أن يكون قولي التي أفكر، وأبرهن، وأشعر بالمتعة والألم، أكثر وضوحاً بالنسبة لي من وجودي الخاص؟ ولو أنني قمت بالشك في جميع الأشياء الأخرى، فإن الشك الخالص يجعلني أدرك وجودي الخاص، ولا أقبل أن أشك في ذلك»[٥]. إن كل ما يريد لوك أن يفعله هنا هو أن يعيد حجة ديكارت «أنا أفكر، إذن أنا موجود».

ويستمد لوك الدرجة الثالثة من المعرفة، أي المعرفة الحسية، من أفكار بسيطة من الإحساس. وليست ثمة صعوبة جادة في التمييز بين أفكار الإحساس الخالي، وأفكار الذاكرة والخيال الباعثة، فالأولى سلبية، ويلازمها لذة أو ألم بصورة لا إرادية، ونحن نستطيع أن نتحقق منها ومن ذكرياتها عن طريق التجربة واللاحظة، وتستمين بشهادة الأشخاص الآخرين. ونؤكد لنا المعرفة الحسية أن عالمًا خارجيًا موجود، وأنه يحتوي على أشياء جزئية وصفات أولية تلازم الجواهر. ولسوء الطالع لا تقدم لنا طريقة لتعقب الارتباط بين الصفات الأولية والصفات الثانوية، ولا تقدم لنا الماهيات الحقيقية للجواهر التي تكون الخواص المجهولة عللًا لكل منها. وإذا لم نعرف سوى الماهيات الحقيقية للخواص بقين حدسي، فإننا نستطيع أن نستنبط صفاتها بالدقة التي نستطيع أن نتنقل بها في الرياضيات، لكننا لا نستطيع، لأن الجزيئات التي تتكون منها المادة صغيرة للغاية بالنسبة لإدراكنا.

ومع ذلك، فإننا نستطيع على الأقل أن نُجمِّع ملاحظات، ونلاحظ الطرق التي تظهر لنا فيها الصفات الأولية على أنها مرتبطة باستمرار بجواهر، ولذلك نستطيع أن نتعلم التنبؤ بظهورها في المستقبل بقدر من الترجيح كبر أو صغر. ويلخص لوك بعض المبادئ، لاتقاء فروض، وبعض المناهج لتقدير الاحتمالات. ولا يبدو أنه يأمل بالنظر إلى التحديدات الكبيرة لخواصنا في تقدم كبير في مجالات البحث التي لا تعرف فيها الجواهر الحقيقية، ويجب أن تحل الملاحظة المحض محل البرهان الرياضي. وبينما يعجب لوك إعجابًا كبيرًا بإنجازات أصدقائه من العلماء، أمثال نيوتن، بويل، وسدنام، وينظر بتواضع إلى عمله هو من حيث إنه فيلسوف، وأنه أقل أهمية إذا قارناه بإنجازات هؤلاء، فإنه لا يبدي الكثير من الثقة التي أبداها بيكون في تقدم العلم التجريبي في المستقبل.

ولابد لـ لوك» أن يدهشه التقدم العظيم الذي حققته العلوم الطبيعية منذ عصره. ولو أنه كان حيًا في يومنا الراهن، أتراه كان واقعيًا متطرفًا، أتراه يتراجع عن قوله بأن الماهيات الحقيقية للجواهر لا يمكن معرفتها، ويُسلِّم بأنها قد انكشفت بصورة سريعة في الجزيئات، والذرات، والالكترونات، والبروتونات، والنيترونات، وجيبات الفيزياء المعاصرة، والكيمياء، والبيولوجيا؟ أو أنه سيكون لا أدريًا من الناحية العلمية وينظر إلى جميع تلك الوحدات على أنها أرقام مفترضة، نافعة للوصف البشري وللإحصاء، لكنها مع ذلك ماهيات اسمية، وهل يزعم أن الماهيات الحقيقية للجواهر لم يمكن اكتشافها بعد؟ ولي

كلنا الخالقين فإنه يستمر في الزعم بأنه لا توجد طريقة نستطيع أن نفهم بها تأثير عمليات أذهاننا في أجسادنا، ولا توجد طريقة نستطيع أن نفهم عن طريقها كيف تثير أجسادنا أفكاراً على الرغم من أن العمليتين تحدثان بصورة واضحة. وقد يكون على استعداد أن يُسلِّم بأن فروضاً أكثر دقة من نظرية التأثير التبادل التي قبلها من ديكارت قد تقدمت وتطورت، غير أنه يستطيع أن يزعم بتبرير ما أنه على الرغم من ذلك لم يصبح شيء معروفاً معرفة حقيقية بالنسبة لهذا الموضوع.

٧ ـ فلسفة الدين والأخلاق

يعتقد لوك ـ بوجه عام ـ أننا لا نعرف شيئاً عن الوجود الحقيقي إلا عن طريق الإحساس. ويستثني من ذلك وجود الله، الذي يعتقد أنه يندرج تحت مجال المعرفة البرهانية المطلقة. ويقدم برهاناً مكوناً من قضايا عديدة، كل قضية منها تُعرف بصورة حدسية، وإذا جُمعت فإنها تؤلف برهاناً. فالإنسان يعرف بصورة حدسية أنه موجود، ويعرف أيضاً أن العدم لا ينتج عنه شيء ما. وإنه لأمر واضح بذاته أيضاً أنه يوجد منذ الأزل باستمرار شيء (غير الإنسان الذي يوجد الآن بالتأكيد، قد نتج من عدم، أو نتج عن شيء نشأ أصلاً من العدم). ذلك الشيء الذي وجد منذ الأزل، لابد أن يكون قوياً، لأنه مصدر كل قوة، ولابد أن يكون أكثر معرفة أيضاً، لأنه لا يمكن تصور أن أي شيء بدون معرفة على الإطلاق يمكن أن ينتج الموجودات التي نعرف. ونتيجة لذلك، لابد أن يكون هناك موجود أزلي، وأكثر قوة، وأكثر معرفة، هذا الموجود هو الله.

ويعيد لوك صياغة جزء من حجته على نحو آخر. فيذهب إلى أنه أمر واضح بذاته أن شيئاً لابد أن يوجد منذ الأزل. وهذا الشيء لابد أن يكون عارفاً، أو غير عارف. ولا يمكن أن نتصور أن موجوداً غير عارف من أي نوع، مادة محض أو حركة، يمكن أن ينتج فكراً. صحيح أننا لا نستطيع أن نفهم كيف يمكن للفكر أن يحدث حركات، ومع ذلك نعرف أن أفكارنا تجعل أيدينا تتحرك، فلو أننا لكنا في الحال أن نفهم هذه الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، فإنها ستكون خطوة أخرى لفهم الخلق. ولأننا لا نفهم العملية التي نقوم بها أذهاننا الفانية، فليس من المستغرب أننا لا نستطيع «أن نفهم عمليات العقل اللامتناهي الأزلي، الذي خلق وحكم جميع الأشياء، والذي لا يمكن أن يتسع له رب السموات»[٦].

ولا ينسى لوك مع موقفه العام عندما يقول في البداية إن الحدس والبرهان لا يمكن أن يقدما لنا معرفة إلا عن الاتفاق والاختلاف في أفكارنا بعضها مع بعض، ثم ينتقل بعد ذلك عن طريق الحدس والبرهان إلى البرهنة على وجود الله، الذي يعتقد أنه لا يوجد كفكرة فحسب في عقلنا مثل الرياضيات والأخلاق، وإنما يوجد بوصفه موجوداً مستقلاً في الواقع الخارجي. ولا يمكن أن نقوم الحجج على وجود الله، في فلسفة لوك، بصورة ملائمة إلا على معرفة حسية ولا تقدم سوى ترجيح، غير أنها يمكن أن تقوم بذلك بصورة كبيرة، على الأقل. وللوك الفضل في وضع أصبعه على ما يزال بالنسبة للفلسفات الدين المتطورة في عصرنا حجة رئيسية على وجود الله، أعني أنه يصعب تصور الحياة والذهن على أنهما نشآ من مادة ميتة أو غير واعية أو من طاقة أكثر من النظر إلى الحياة والعقل على أنهما نتاجان لعقل خالق يعمل في الطبيعة.

على الرغم من أن لوك يعتقد من الناحية الظاهرية أنه من الممكن تطوير مذهب للأخلاق مستقل من الناحية التجريبية عن اعتبارات لاهوتية، فإن التأكيد في الصفحات المتفرقة التي يشير فيها إلى الأخلاق لاهوتي بصورة قاطعة وجازمة. فمن وجود الله الذي يمتلك قوة لامتناهية، وخيرية، وحكمة، يتبع أنه من واجب البشر، ومن مصلحتهم طاعة أوامره. وفي حين أن الناس ليست لديهم أفكار فطرية، فإن لديهم قلقاً فطرياً أو رغبة في أن يختبروا اللذة ويتجنبوا الألم في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى (ولوك فيلسوف للذّي أناني أساساً). إن الأساس الحقيقي للأخلاق هو «إرادة الله وقوته، الذي يرى الناس في الظلام، ويمتلك في يده الجزاءات والعقوبات، وهو قوي بدرجة تكفي لمحاسبة المذنب الأكثر تفاخراً»[٧] ويمتلك الله عن طريق علاقة لا تنفصل ومرتبطة تماماً فضيلة فردية وسعادة عامة، ومن مصلحة كل شخص أن يمتلك طبقاً لها. ولقد نظم الله المادة حتى إن الإنسان ـ الذي تحركه الرغبة في اللذة ـ يضع من الناحية التجريبية مبادىء أخلاقية. ولقد أعطى الله الإنسان العقل الذي يعرف به حقائق الأخلاق عن طريق البرهان، ولقد أوحى فضلاً عن ذلك، بمبادىء الأخلاق في الكتب المقدسة. ولذلك، فإن التجربة، والعقل، والوحي، تتجمع لكي تقيم الأخلاق على أساس راسخ[٨].

والإنسان مسئول أمام الله وأمام أقرانه من الناحية الأخلاقية عن سلوكه. لأن عقله قادر على أن يفكر ملياً في أي فكرة ونتائج أي فعل، أو أن يرفض أن يفعل ذلك. والعقل حر باستمرار في أن ينتقي ويختار بين بدائل ممكنة، وهو يفعل ذلك وفقاً لرغبته الفطرية في

اللذة وكراهية الألم. إن الناس يحكمون باستمرار على الخير (اللذة) الراهن والشر بصورة صحيحة، لكنهم لا يمارسون باستمرار حريتهم في التروي كثيراً بدرجة تكفي قبل الفعل لمعرفة ما الذي يمكن أن يجلبه من سعادة على المدى الطويل. وحتى عندما يعرفون ذلك، تكون الرغبات من أجل لذات عاجلة شديدة للغاية في بعض الأحيان، كما في حالات السكر والسرف. وعلى الرغم من أن مناقشة لوك لمشكلة حرية الإرادة غامضة أحياناً وربما مترددة، فإنه يجب أن يصنَّف بوجه عام بوصفه فيلسوفاً لا حتمياً[٩].

ويؤكد لوك، كما رأينا في «مقال في الفهم البشري» أن وجود الله، ومبادىء الأخلاق يمكن أن نبرهن عليها عن طريق العقل البشري. ويقدم الوحي من الله في الكتب المقدسة معرفة أبعد، وهي «لا تناقض العقل»، ويمكن امتحانها عن طريق المعجزات. ويقبل لوك المعجزات الموجودة في الكتاب المقدس، لأنه على الرغم من أنها «فوق العقل»، فإنها تخلو من الخُلف المنطقي، ولذلك فهي غير متناقضة. فلا شيء يمكن قبوله، في واقع الأمر، بناء على مزاعم الوحي يكون متناقضاً بصورة مباشرة للعقل الذي «يجب أن يكون حكمنا الأخير ومرشدنا في كل شيء»[١٠]. ولأننا «لا نستطيع على الإطلاق أن نقبل حقيقة أي شيء يكون متناقضاً بصورة واضحة ومتميزة لمعرفتنا الواضحة والمتميزة»[١١]، فإنه يجب على الناس العقلاء أن يرفضوا الانكشافات المزعومة لضيقي العقل و«المتعصبين» الوهمية في القرن السابع عشر، على الرغم من أن لوك يعتقد أن أولئك الذين يدافعون عنها يجب أن يتسامحوا طالما أنها لا تسبب اضطرابات عامة.

ويدافع لوك في كتابه «معقولية المسيحية» عن الديانة المسيحية استناداً إلى معقوليتها الذاتية. لقد استعاد المسيح الخلود للبشرية بناء على ثلاثة شروط بسيطة فقط وهي: الإيمان به من حيث إنه المسيح، والتوبة، والصفح عن الآخرين. ويمكن لأي إنسان بسيط أن يفهم تلك البادىء، وهي كلها أساسية للخلاص. وعندما يصبح الإنسان مقتنعاً بحقيقتها، فإن دراسة إضافية للكتاب المقدس ستؤدي به إلى قبول الحقائق الأخرى التي يدرسها فيه. وبذلك الروح، كتب لوك تعليقاً على بعض من رسائل القديس بولس. يقول عن تلك الرسائل في موضع ما «لقد كتبت الرسائل في مناسبات عديدة، ومن يقرأها، ينبغي، ويجب عليه أن يلاحظ أن ما هو موجود فيها له في معظمه هدف ... ويجب علينا ألا نتقي ونختار ... فهنا وهناك أيضاً ... إن الرسائل، معظمها، تعرض خيط الحجة ... ولكي ننظر إلى النصوص على نحو ما هي عليه بحيث يكون لها مكان في تلك الرسائل، لابد من أن ننظر إليها في

صوتها الصحيح والمناسب، وإلى الطريقة التي نحصل بها على المعنى الحقيقي لها»[١٢].

ومن المحتمل أن ننظر إلى لوك اليوم على أنه مدافع حذر عن المسيحية التقليدية، لأننا نقارنه ببعض من أناس متأخرين في عصر التنوير، مثل الوالهة. وعندما كتب ـ في العقد الأخير من القرن السابع عشر ـ كان يأخذ موقفاً متقدماً للغاية في رد ما هو جوهري في المسيحية إلى قضايا قليلة بسيطة، وفي رفض كل شيء في الدين يناقض العقل. ولا شك أنه فتح الطريق أمام مؤلهة القرن الثامن عشر، الذين ذهبوا أبعد مما ذهب إليه، ورفضوا كل ما لا يمكن البرهنة عليه عن طريق العقل، من حيث إنه مناقض له؛ ولذلك استبعدوا كل شيء يقوم على الوحي والمعجزات، وردوا الدين إلى ما يمكن إقامته على أسس عقلية خالصة. لقد كان لوك مبشراً بفولتير وشركاك آخرين وفلاسفة ماديين في القرن الثامن عشر دون أن يقصد.

ولأن الملامح الأساسية الخلقية للمسيحية كما يرى لوك معقولة، ومفهومة بالنسبة للإنسان البسيط، فإنه يدافع عن الحرية بأسرها بناء على دعائم أساسية، يجعل من بينها بصورة واضحة مذهب التثليث وتعقيدات ميتافيزيقية أخرى لم يجدها في الكتاب المقدس نفسه. وكتب لوك أربع «رسائل في التسامح» كبيرة الحجم. وتبدو الدولة أو الجمهورية له «مجتمعاً من أناس، لا تتكون إلا من أجل تدبير مصالحهم المدنية الخاصة، وحمايتها، والعمل على ارتقائها، مثل الحياة، والحرية، والتملك». وعند تشكيل الحكومات المدنية، لا يضحي المواطنون بحقوقهم الدينية الفردية. «لأنه لا يمكن لأحد أن يتخلى تماماً عن الاهتمام بخلاصه الخاص، كما لا يستطيع أن يتركه بصورة عمياء لاختيار أي شخص آخر، سواء كان أميراً أو من الرعية؛ ليصف له ماذا يعني الإيمان أو العبادة التي يعتنقها»[١٣]. ويذهب لوك أبعد من إسبينوزا في الدفاع عن المواطنين. فهو لا يدافع عن حرية التفكر والتعبير في مسائل الدين فحسب، بل يدافع أيضاً عن حرية العبادة العامة في كنائس من اختيارهم الخاص.

وتندرج التحفظات الوحيدة لإمام التسامح ـ الديني التي يعتقد لوك أنها ضرورية تحت عناوين ثلاثة: أولها ـ أنه لا يسمح بإكثار «الآراء التي تناقض المجتمع البشري، أو تلك التي تناقض القواعد الأخلاقية الضرورية لحفظ المجتمع المدني»[١٤]. وثانيها ـ أنه بطريقة ما ـ فهو لم يقل بصورة محددة كيف، بل من الناحية الظاهرية من حيث إنه ضروري من الناحية العملية لأمن الحكومة ـ يقيد أنشطة أولئك الذين يعتقدون أنه «يجب

عدم حفظ العهد مع الزنادقة»، وأن «الملوك الذين يحرمون الناس من الكنيسة يضيعون ممالكهم». ويبدو أنه كان في ذهنه الكاثوليك الرومان، وخشي أنهم لا يقون موالين لولائهم الخاصة بالوفاء «لوليم ومارى»، اللذين كان ينظر إليهما على أنهما زنديقان حُرما من الكنيسة، وأنهما مشغولان بتدبير مكائد لإعادة آل ستيوارت. (قدمت أنشطة الكاثوليك الرومان المتمثلة في ثورة عام ١٧١٥ وعام ١٧٤٥ تبريراً لمخاوف لوك). أما الاستثناء الثالث فهو للملاحدة، «ويجب عدم التسامح مع هؤلاء على الإطلاق، فهم ينكرون وجود الله. إن الوعود، والمواثيق، التي تكون روابط للمجتمع البشري، لا يمكن أن تستحوذ على الملحد. والتخلي عن الله - حتى في التفكير - يؤدي إلى اضمحلال الجميع. وفضلاً عن ذلك أيضاً، فإن أولئك الذين يقوضون ويدمرون بإلحادهم كل دين، لا يكون لديهم ادعاء الدين، وعندئذ يعترضون على ميزة التسامح»[١٤]. وينتج استبعاد الملحد من اعتقاد لوك أن الأخلاق تقوم من الناحية المنطقية على وجود الله، وإنكار ذلك سيقوض جميع الإلزامات الخلقية والمدنية. ويحذر لوك - من ناحية أخرى - من اتهام الأشخاص بالإلحاد لأن آرائهم الدينية تختلف عن آراء الكنيسة المعترف بها رسمياً[١٥]. وتبعاً لرأي لوك، فإنه ينبغي فيما يبدو الإقرار بالتسامح الكامل مع اليهود، والمسلمين، وكل الأشخاص الآخرين الذين يقبلون المبادئ المشتركة للأخلاق، ويمكن أن يعتمد عليهم في أن يكونوا رعايا موالين لحكومة انجلترا الجديدة. لقد كان تأثير لوك كبيراً في تعليم الرأي العام في انجلترا لدعم الحكومة في سياستها الخاصة بممارسة تسامح ديني أوسع من أي بلد أوربي آخر إبان فترة عصر التنوير.

٨ ـ الفلسفة السياسية

كُتبت «رسالتان في الحكومة المدنية»، كما يقول لوك في المقدمة «لكي ترسخ عرش ملكنا الحالي العظيم وليم، أي لكي تثبت حقه في رضا الشعب؛ ولأنه الحكومة الوحيدة من الحكومات المشروعة، فقد حاز على الرضا أكثر من أي أمير آخر في العالم المسيحي، ولكي تبرر للعالم موقف شعب انجلترا - الذي أنقذ حبه للحقوق العادلة والطبيعية، مع تصميمه على أن يحتفظها - الأمة عندما كانت على حافة العبودية والدمار».

ويتصور لوك، مثل هوبز، تأسيس الدولة المدنية بأنه كان نتيجة عقد اجتماعي، وأن حالة الطبيعة التي تسبقها هي حالة حرية كاملة ومساواة. ومع ذلك، فإنه لا يعتقد، مثل

هوبز، أن حالة الطبيعة حالة تعيس. عرف الناس فيها أنه ينبغي على أي شخص ألا يؤذي شخصاً آخر في حياته، أو صحته، أو حريته، أو ممتلكاته. ويستشهد لوك، كدليل، بروايات الرحالة، ويستخدم على سبيل المماثلة المعرفة الضمنية والمعاهدات المؤقتة التي تبرمها الحكومات المستقلة بعضها مع بعض[١٢]. في حالة الطبيعة، التي لا توجد فيها سلطة معينة للإنصاف وإرجاع الحقوق، يكون من حق كل إنسان وواجبه أن يحمي نفسه بقدر ما يستطيع، وأن يوقع العقوبة على الأشرار. ويستشهد لوك بدليل آخر وهو ما تفعله الحكومات الحديثة عندما تعاقب أجنبياً من بلد آخر، ويعتقد أن الحكام المستبدين في الأرض حيثما لا يكون هناك دستور يمارسون باستمرار هذا الحق على رعاياهم، وكثيراً ما أسيء استخدامه إلى حد أن تكون رعاياهم أسوأ حالاً مما لو كانوا في حالة الطبيعة. وطالما أنه لا يمكن ـ في حالة الطبيعة ـ إرجاع الحقوق إلا عن طريق القوة التي تمارس وفقاً لحكم الأفراد التعسفي عندما يشعرون بأن ثمة ضرراً لحق بهم، فإنه يكون هناك خطر مستمر من القتال، والحروب، والفوضى.

ولكي يتجنب الناس كل ذلك، ويحصلوا على أمن أكبر، يشكلون عن طريق عقود إرادية جماعات سياسية، ثم تنشيء الجماعات بعد ذلك حكومات. وعند إبرام عقد اجتماعي، ينقل كل فرد قوته، لا إلى الملك (كما افترض هوبز أن ذلك صحيح بالنسبة للمجتمع)، بل إلى الجماعة، لكي يصبح قرار الجماعة بعد ذلك قانوناً. ولأن إيجاد صورة معينة من الحكومة عن طريق جماعة يتبع التنظيم السابق للجماعة نفسها، فمن الممكن بالنسبة لجماعة أن تغير الحكومة دون أن تحل نفسها. وبدت ثورة ١٦٨٨، بدون شك، «للوك» ولقرائه دليلاً على ذلك، إذ تم طرد ملك ثم اعتلى العرش ملك آخر بارتياك قليل للغاية في البلد. واختلفت الوقائع تماماً عما كانت عليه أثناء سقوط حكم شارل الأول، عندما استنتج هوبز أن ثمة تغيراً ثورياً لشكل الحكومة استلزم بالضرورة العودة إلى فوضى نظام الطبيعة.

وفي ظل العبش في عصر تجاري، والكتابة دفاعاً عن ثورة كان هدفها أن تحمي حقوق رجال الأعمال وأصحاب الأملاك الآخرين ضد التدخل الملكي، اعتقد لوك أن الحقوق الطبيعية الرئيسة التي يحافظ عليها المجتمع وتبرر مخالفتها عن طريق الحكومة قيام ثورة، هي حق الحياة، والحرية والملكية، التي تعد حقوقاً ضرورية لاستمرار الحياة العادية. ومن أجل تحقيق الأمن للناس، يجب تقسيم سلطات الحكم إلى سلطة تشريعية، وسلطة تنفيذية، وإذا

نشأت منازعات بين السلطتين، يكون لدى الشعب ـ الذي يكون وكيلاً عن السلطتين ـ الحق في أن يتخذ القرار النهائي. وإذا رفضت الحكومة أن تستجيب لرغبات الشعب، يكون للشعب ـ بعد أن احتج من قبل دون فائدة بكل طريقة سلمية ممكنة ـ أن يلجأ إلى القوة، و«يلجأ إلى السماء» لكي تكفل عدالة قضيتهم.

ولقد تم صياغة إعلان الاستقلال الأمريكي عام ١٧٧٦ وفقاً لفلسفة لوك. ففي هذا الإعلان يروي أهل المستعمرات الثلاثون انتهاكات متكررة لحقوقهم الطبيعية ارتكبتها حكومة الملك، التي احتجوا ضدها دون جدوى، وأعلنوا أنهم مضطرون الآن إلى الاستعانة بقوة السلاح وتأسيس حكومة مستقلة. إنهم يلجئون إلى السماء يطلبون رضا عالم منصف. ويكشف الدستور الأمريكي عام ١٧٨٧ عن تأثير لوك أيضاً. فهو ميثاق الشعب، وهو يعهد بسلطات محدودة إلى الحكومة الفيدرالية، ويفصل بوضوح السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية بعضها عن بعض. ونتيجة لتأثير مونتسكيو، الذي أعتقد أن فلسفته السياسية تطوير لفلسفة لوك في هذا الموضوع بالتفصيل، استقلت السلطة القضائية عن السلطتين التشريعية والتنفيذية.

ويؤسس لوك أصل حقوق الملكية في استغلال الأرض لأول مرة وهو استغلال ممزوج بالعمل. ففي الحالات البدائية ـ عندما كانت هناك أرض وفيرة ـ اكتسب الإنسان الذي يحيط قطعة من الأرض يسور ويزرعها حقاً أخلاقياً في الأرض وأيضاً في إنتاجها. (كانت القوانين الأمريكية المحلية، التي اكتسب وفقاً لها كثير من المواطنين حقوقاً في ملكية الأرض التي شغلوها واستصلحوها، تطبيقاً لنظرية لوك). ويلاحظ لوك أنه باختراع النقود، أصبح الناس قادرين على تجميع الثروة التي لم يكونوا في حاجة إلى استهلاكها بصورة مباشرة. لقد كان لوك واحداً من رواد علم الاقتصاد السياسي، وكتب رسالة عن نتائج تخفيض الربح ورفع قيمة المال. ولقد أدى رأيه الذي يقول إن رأس المال نتاج العمل، إلى نظريات اجتماعية في القرن التاسع عشر لم يكن لوك يستحسنها على الإطلاق.

٩ ـ فلسفة التربية

نشر لوك ـ الذي علم أولاداً كثيرين بنجاح ملحوظ ـ في كتابه «بعض الأفكار في التربية» مع إضافات سلسلة من الخطابات كتبها سابقاً إلى صديق سأله عن نصيحة تخص أفضل طريقة لتربية ابنه الصغير. ولقد جذب الكتاب الانتباه بصورة كبيرة، وتفدت منه

طبعات عديدة إبان حياة لوك، وظل واحداً من أعظم الكتب التربوية. يبدأ لوك بقوله: «العقل السليم في الجسم السليم هو وصف مختصر، لكنه كامل للدولة السعيدة في هذا العالم». ومن خبرته الطبية والتربوية يقدم تعليمات مفصلة عن التغذية، والملبس، والتدريب، التي ينظر إليها كثيرون على أنها مفيدة باستمرار لتربية الأطفال الأصحاء، وربما لا يزال ينظر إلى بعضها على أنها نصيحة جيدة.

ويكتب في بعض الفقرات أشبه بعالم نفسي سلوكي حديث يقول: «إن عقل الطفل مثل قطعة من العجين، إنه لا يكون مدفوعاً إلا برغبة فطرية في اللذة وكراهية الألم، ويمكن للآباء والمعلمين أن يشكلوا العادات كما شاءوا». ويصر في بعض المواضع على أنه لابد أن تكون هناك رعاية تامة لقدرات الطفل واهتماماته، وعمل التربي هو أن يعمل على تنمية تلك القدرات والاهتمامات بطريقة طبيعية ودقيقة، مع عناية خاصة بشخصية الطفل.

والأهداف الأساسية في التربية هي الفضيلة، والحكمة، والتربية، والتعليم. فالفضيلة ذات أهمية أساسية، وكما يمكن للمرء أن يتوقع من آراء لوك في الأخلاق، فإن أول شيء يجب فعله هو أن يبحث في الطفل حب الله وتبجيله، ويعلمه الصلاة. ويجب حمايته من قصص الأشباح، والأرواح، والعفاريت (التي كثيراً ما تسبب رعباً للأطفال). ويجب أن يوجه إلى تكوين عادة قول الصدق باستمرار في كل مناسبة. وتأتي الحكمة مع سنوات النضج، غير أنه يمكن تعليم الطفل مواجهة الحقائق، والتفكير المستقيم، وعدم الاقتناع حتى يحصل على تفسيرات صحيحة للأشياء التي يكون في إمكانه فهمها. والمبدأ الجوهري الذي يكون أساساً للتربية هو «عدم النظر بهانة واحتقار إلى دوافعنا، وعدم النظر بهانة واحتقار إلى الآخرين». أما التعليم فلابد أن يكون مفيداً للطفل الناشئ. لابد أن تختلط دراساته بألعابه. ولابد من إعطائه فرصة لأن يصنع العابًا لنفسه، وأن يتعلم عن طريق العمل والممارسة learning by doing. ولابد من اكتساب لغات أجنبية بقدر الإمكان عن طريق المحادثة بدلاً من حفظ قواعد النحو. وإذا أحدثت له القراءة متعة وسروراً، فإن الطفل يستمر في الدراسة، ويصبح إنساناً مثقفاً عندما يكبر، لكن إذا بدت القراءة له مهمة كريهة، فإنه لن يتذوقها فيما بعد.

ويجب على الآباء أن يكونوا حازمين في تأكيد سلطتهم عندما يكون الأطفال صغاراً، لكن عليهم أن لا يستخدموا العقوبات البدنية إلا بأقل قدر ممكن. فمن الأفضل

حث الأطفال عن طريق ترغيبهم في التقدير والخوف من أن يلحق بهم جزء، فذلك أفضل من أي نوع من أنواع الجزاءات أو العقوبات. ومن الواضح أن ذلك يعني عند لوك أنه يجب توجيه الطفل إلى تقدير ما يحتاج إلى تعلمه لكي يحترم ذاته ويحترمه الآخرون. وعندما يكبر الأطفال، يجب أن يكونوا موضع ثقة من جانب آبائهم، ويناقشوا مشكلاتهم معهم، ويشجعونهم على تقديم اقتراحات تخص ما يجب عليهم أن يفعلوه. وبتلك الطريقة تُسد الفجوة بين الأجيال إلى حد كبير، ويظل الآباء والأطفال أصدقاء طالما بقوا أحياء.

ويؤكد لوك في كتابه «عمل العقل» أهمية التكوين المبكر لعادات التفكير السليمة. ويجب ألا نندهش من أن الناس كانوا عبيداً للأهواء في العصر الوسيط، حتى إنهم قفزوا باستمرار إلى نتائج، دون تمييز - في الغالب - بين رغباتهم وأوهامهم والحقائق الفعلية. «لقد اعتادت قلة من الناس منذ صغرهم على البرهان الدليل، وعلى تعقب اعتماد أي حقيقة، في سلسلة طويلة من النتائج، إلى مبادئ بعيدة، وملاحظة ارتباطها، وأن الذي لم يتعود على ذلك الاستخدام للعقل عن طريق ممارسة مستمرة، فلا عجب أنه، عندما يتقدم في العمر، لن يستطيع أن يطوع عقله على استخدامه، مثل الذي لا يستطيع أن يتقن أو يصمم، أو يرقص على الحبال، أو يكتب بخط واضح، لا يمكنه مطلقاً أن يمارس أياً منها». والرياضيات موضوع مفيد بصفة خاصة لتعليم الشباب كيف يفكرون بصورة متسقة. ويعهد لوك إلى الدين واللاهوت لتحقيق هذا الغرض أيضاً. ومن المهم فهم المعنى الصحيح للكلمات لكي تكون هناك قدرة على الكلام، والقراءة، والكتابة بصورة معقولة ومفهومة. وكثيراً ما يُصنَّف لوك - بوصفه واحداً من المناصرين للتربية بوصفها علماً صورياً خالصاً - ولا يعقل أن يكون ذلك صحيحاً، لأنه لم يوافق بشدة على التدريب الصوري في علم النحو والمنطق الذي كان الاهتمام موجهاً إليه بصورة أساسية في أيام دراسته في «وستمنستر» وفي سنوات الجامعة في أكسفورد. ويبدو من المعقول أن نفترض أن ما كان يدور بخلده هو بدقة نوع التدريب الذي يرغب فيه اليوم نظرياً، كل مدرس في كلية حرة، وينصح أن يتلقاه تلاميذه: أعني أن يفكروا بصورة متسقة، وأن يفرقوا في كل شيء وبلا تمييز على أن يفصلوا ما هو جوهري عما لا صلة له بالموضوع في أي مجال قد يمكنون عليه. وربما يكون ذلك هو ما يعنيه لوك بصورة أساسية «بالحكمة» و«بعمل العقل».

References

Life:

H. R. Fox Bourne, The Life of John Locke (2 Vols.).

T. Fowler, Locke (a short biography).

Works :.

Complete Works; the most commonly available edition was published from 1822 - 24.

Essay, many editions; best is that edited by A. C. Fraser.

Selections, edited by S. P. Lamprecht (Scribners).

Selections, edited by M. W. Calkins (Open Court).

Locke's Philosophical Works (Chiefly Essay and Conduct of the Understanding) ***Bobbslibrary.***

Thoughts Concerning Education (Various popular editions).

Expositions and Criticisms:

(Popular)

Bennett, Locke, Berkeley and Hume.

M.W. Calkins, Persistent Problems of Philosophy.

(Semi-popular)

R.J. Aaron, John Locke (also contains brief biography).

(Technical)

T. H. Green, Introduction to Hume (Published in the Green and Grose edition of Hume's Treatise; also in T. H. Green's Philosophical Works, Vol. I).

Armando Carlini, La Filosofia di G. Locke.